

في ظلال القرآن الكريم

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَّا فِي الْأَرْضِ

بِقلم

الدكتور محمد أبوفارس

دار الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةُ سِجْدًا قَالُوا آمَنَا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ . قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ
آذَنْ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُمُ الَّذِي عَلِمْتُكُمُ السَّحْرَ فَلَا يُقْطِعُنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ
خَلَافٍ وَلَا صَلْبَنَكُمْ فِي جَذْوَعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيْنَا أَشَدُ عَذَابًاً وَأَبْقَىٰ . قَالُوا لَنْ
نَؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

[سورة طه: ٧٠ - ٧٢]

الإهداء

إلى المستعبدين الرازحين تحت نير الطواغيت المستكبرين.
إلى الذين آمنوا بفكرتهم ونذروا أنفسهم لنشرها في كل مكان.
إلى الذين عرفوا تكاليف التحرير فوطّروا النفس على البذل حتى التحرير
والتحفيز.

أهدي كتابي هذا

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٥	المقدمة
٩	الإهداء
١٣	المقالة الأولى: من السياسة الفرعونية فرق تسد
١٦	المقالة الثانية: الظالم يتوجس خيفة من ثورة الظالمين فيبطرش بهم
١٩	المقالة الثالثة: فاستخف قومه فأطاعوه
٢٢	المقالة الرابعة: الطاغية يطارد المصلحين
٢٥	المقالة الخامسة: فوائد الرعى لموسى - عليه السلام -
٢٨	المقالة السادسة: موسى يدرك ظلم فرعون فيكرهه ويهجر مصره
٣١	المقالة السابعة: موسى ينتصر من المستكبرين للمستضعفين
٣٤	المقالة الثامنة: يتآمرون على أبناء جلدتهم إرضاءً لفرعون
٣٧	المقالة التاسعة: مخاطبة الفراعنة تتتنوع حسب الأحوال: لكل مقام مقال
٤١	المقالة العاشرة: حملات الاعلام الفرعونية لم تؤت ثمارها الخبيثة
٤٤	المقالة الحادية عشرة: انه المنطق المعكوس
٤٧	المقالة الثانية عشرة: ثبات موسى وتحديه لفرعون حين قرر سفك دمه
٥٠	المقالة الثالثة عشرة: ديمقراطية فرعون
٥٣	المقالة الرابعة عشرة: كيد فرعون في ثبيت حكمه

المقالة الخامسة عشرة: التوكل على الله من أهم عوامل النصر على الطواغيت الفراعنة	٥٥
المقالة السادسة عشرة: مفهوم شرعية العمل الإسلامي عند الفراعنة	٥٨
المقالة السابعة عشرة: الطاغية يتهدد ويتوعد	٦١
المقالة الثامنة عشرة: الإيمان يحرر أصحابه من الحروف	٦٣
المقالة التاسعة عشرة: ترکية النفس ثمرتها الجنة	٦٦
المقالة العشرون: مؤمن آل فرعون يستنكر التامر على حياة موسى	٦٨
المقالة الحادية والعشرون: يستحسن التلطف في خطاب المدعين	٧١
المقالة الثانية والعشرون: خطورة العقيدة على سيادة فرعون الغاشمة الباطلة	٧٣
المقالة الثالثة والعشرون: مراوغة الطاغية فرعون	٧٦
المقالة الرابعة والعشرون: مؤمن آل فرعون يدعو إلى رفض ألوهية فرعون	٧٩
المقالة الخامسة والعشرون: مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار	٨٢
المقالة السادسة والعشرون: نجاة مؤمن آل فرعون من بطش فرعون	٨٥
المقالة السابعة والعشرون: نقم الله تحيق بفرعون وأتباعه	٨٧
المقالة الثامنة والعشرون: فتية مؤمنون يقعون بين نارين	٩٠
المقالة التاسعة والعشرون: الترف وحب الزعامات يحجبان الاستجابة لنداء الإيمان	٩٣
المقالة الثلاثون: فرعون يحشد الجنود للفتك بالمؤمنين	٩٦
المقالة الحادية والثلاثون: موسى يسلك سبيل النجاة	٩٩
المقالة الثانية والثلاثون: فالليوم ننجيك بيذنك لتكون من خلفك آية	١٠٢

المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ أَنفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا،
مِنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضْلِلٌ لَّهُ، وَمِنْ يُضْلِلُ فَلَا هَادِيٌ لَّهُ، وَلَنْ تَجِدَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
مَرْشِداً.

ثم أما بعد،

فإن الذي يقرأ كتاب الله تبارك وتعالى يجد أنه حوى بين دفتيره كثيراً من
قصص الرسل، وما واجهوا من عنت ومشقة، في رحلتهم الدعوية.

ولقد انفتح في روحي أن سرد هذا القصص في القرآن جاء يحقق فوائد جمة،
وحكماً جليلة. وأنه ينبغي على الداعية الذي يتعامل مع القرآن أن يتأمل هذا
القصص القرآني. وأن يستخلص منه هذه الفوائد والحكم، ويعوص فيستنبط من
نصوص قصصه العبر والدروس.

ولقد تفضل الله تبارك وتعالى على عباده والدعاة إلى دينه بأن فقههم في الدين،
وأعانهم على استنباط الدروس العديدة والمسائل المفيدة من هذا القرآن الكريم.

إن الداعية المسلم وهو يتعامل مع هذا القصص القرآني وبخاصة قصص الرسل
مع الطواغيت، والرسل ومحبيهم وأتباعهم يضع يديه على فوائد عظيمة ودروس
مفيدة. يستفيد منها وهو يمارس الدعوة إلى الله، ويواجه ظروفاً تشبه تلك
الظروف.

إن الله تبارك وتعالى بين لنا في كتابه أن القصص يقصها على الناس ليتفكروا
فيها، ويتدبروها ويستخلصوا بعد ذلك العلة أو العذات والحكم والأحكام، قال
تعالى: ﴿فَاقْصُصُ الْقَصَصَ لِعَلَمْهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

بل إن القرآن يُبيّن أن الذي يعتبر بهذا القصص هو صاحب العقل الكبير، والفهم الراجح، والرأي الصائب. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَئِكَ الْأَلْبَاب﴾ [يوسف: ١١١].

وقصة موسى - عليه السلام والطاغية - فرعون لعنه الله لعنة متصلة إلى يوم الدين - قد أكثَر القرآن من ذكرها في سور عديدة، يوجز أحياناً ويسهب أحياناً ويقدم أدق المعلومات في هذه القصة. وقد ذكرت هذه القصة في نيف وثلاثين سورة من سور القرآن الكريم.

ولأننا نحسب أن عرض هذه القصة في نيف وثلاثين سورة من سور القرآن، يوحِي باهتمام القرآن بهذه القصة. لما فيها من حكم وعبر وعظات وفوائد.

ولقد تعاملت هذه القصة تلاوة وتدبراً وفهمًا واستنباطاً للعبر والدروس والحكم والأحكام، واستقر في قلبي أن هذه القصة قد وضحت بشكل لا يقبل للبس أموراً منها:

- طبيعة طريق الدعوات طريق مفروش بالأشواك وملوء بالدماء والآلام.
- عصمة الله رسle وحمايتها من أعدائهم في الغالب حتى يلغوا دعوتهم للناس.
- التسربة عن المؤمنين وهم يواجهون العنت والمشقة بأن ما يعانون منه عانى منه جميع الرسل.
- النتيجة في النهاية للرسل واتباعهم حيث النصر والتمكين.
- رفع الروح المعنوية عند الدعاعة وتشييدهم حين يطلعهم الله على هزيمة الكافرين ونصرة عباده المؤمنين.
- الله يؤيد رسle بالمعجزات الخارقة والبراهين الساطعة على صدق رسالته.
- طبيعة نفس الطاغوت عدوانية.
- الهوى يعمي ويصم الطواغيت عن سماع الحق ورؤيته.

إن مما يجدر الإشارة إليه وذكره في هذا المقام، أننا لم نكتف بذكر أحداث القصة؛ بل عرضنا كل حدث وحللناه واستنبطنا منه درساً أو أكثر. وحاولنا أن نوازن بين هذه الدروس. وبين الواقع الذي يعيشه الناس في عالمنا العربي والإسلامي والغربي الصليبي والعلماني الإلحادي. وكنا نشير إلى بعض أمراض الشعوب في المنطقة، ومدى مشابهة هذه الأمراض إلى أمراض قوم فرعون.

لقد ضمّنا ما استنبطناه من دروس وحكم وعبر في كتابنا هذا، واختبرنا أن يكون عنوانه جزءاً من آية من كتاب الله تعالى: «إِنْ فَرْعَوْنَ عَلَىٰ فِي الْأَرْضِ» هي الحقيقة الفرعونية كما قررها القرآن الكريم. حقيقة العلو والاستكبار وسفك الدماء وتقتيل الأطفال الذين لا حول لهم ولا طول.

ولقد رأينا أن كثيراً مما جرى في عهد الطاغية فرعون، يتكرر في عهد فراعنة القرن العشرين. سواء كان في الأسلوب أو الموقف، ولاحظنا أيضاً أن ما حدث من خنوع أمام فرعون مصر قدماً يتكرر في بلاد العرب والمسلمين، فنجد خنوعاً أشد وجبناً أكد مما كان عليه الشعب المصري المقهور والمظلوم المستعبد.

وأنتي أرجو أن تكون قد قدمت دراسة مفيدة يستفيد منها الدعاة، وهم يواجهون طواغيت الأرض في عالمهم المعاصر. فيتعلمون من موسى – عليه السلام – التصدي لفرعون، والثبات على المبدأ، والاعتماد على الله. ويتعلمون من مؤمن آل فرعون، الدفاع عن المؤمنين بظاهر الغيب وقوة الحاجاج والترقى فيه، والماضلة والتمييز في الصفات والمواصفات.

ولأنني قبل أن أضع اليراع ألهج إلى الله بالثناء والرجاء أن يتقبل مني جهدي هذا، وأن يرزقني الاخلاص في كل جهد أبذله، وأن يعيننا أن نقف موقفاً موسى – عليه السلام – و موقفاً مؤمن آل فرعون و موقفاً الذين آمنوا مع موسى وهارون – عليهمما السلام – فاستعدبوا الموت في سبيل دينهم.

وأريد أن أهمس في أذن القارئ الكريم، الذي تربطني به صلة الإسلام، وأخوه

الإيمان، والعمل للدين الله. أن الجهد البشري كثير النقص، كثير الخلل، فإنه لا عصمة لغير الرسل من البشر. ومن ثم فالتمس منه إن وقع بصره على نقص أو خلل أن يبادر على الفور بتقديم نصيحته لي، وملحوظاته ونقده وتوجيهاته، فإن المؤمن مرآة أخيه. ولا أملك أن أكافئه إلا أن أدعوه له بما علمني إياه رسول الله ﷺ فأقول له: جزاك الله عنك خيراً.

سبحانك الله وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك.

صواليح في ٣ جمادى الأولى / ١٤١٧ هـ

١٩٩٦/٩/١٦ م

المقالة الأولى

من السياسة الفرعونية في الحكم: فرق تسد

إن القرآن الكريم يخبرنا أن فرعون موسى علا في الأرض. وكان لهذا العلو مظاهر منها ادعاء الألوهية، حين قال للackers [ما علمت لكم من إلهٍ غيري] [القصص: ٣٨]. وقال موسى مهدداً أو متوعداً: [لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأُجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ] [الشعراء: ٢٩]. [فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى] [النازعات: ٢٤].

ومنها استعباد الناس وظلمهم، وقتل الأطفال حفاظاً على حياته ونظامه الطاغوتي، ومنها تسخير الناس لبناء قبر يقال له الهرم مات فيه نحو مليون مصرى.

ومنها أنه الوحيد الذي يفهم وما ينطق إلا بكلمة الحق والصواب، وغيره أمام فهمه ورأيه لا وزن له. فهو يقول للشعب المصري المظلوم: [مَا أَرَيْكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرِّشادِ] [غافر: ٢٩].

كل هذا تم وزيادة يوم أن أوجد المتناقضات بين شعبه، وقسمه إلى فئات وطبقات، يقرب طائفة، ويبعد أخرى. وينعم على طائفة وينقم على أخرى. ويوجد التناحر بين هذه الفئات حتى يشغلها عن ظلمه وفسقه وفجوره، تأمل قوله تعالى: [إِنَّ فَرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْعَأً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدْبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيُسْتَحِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ] [القصص: ٤]. هذا هو الإفساد بين الناس، بالفتنة والتقطيل وإبقاء النساء أكثر من الذكور. ليشيع الفساد الأخلاقي.

وهذا أسلوب يستخدمه الفراعنة في كل زمان ومكان. وبخاصة إذا علمنا أن فرعون ليس اسم حاكم من الحكام ولا فرد من الأفراد، وإنما كلمة فرعون صفة مأخوذة من الفعل فرعن، وفرعن تعني طغى وبغى وتباهى وظلم.

وعلى هذا، ما أكثر الفراعنة في أيامنا هذه، ما أكثر الطغاة والجبارية والظلمة، ما أكثر الذين يعيشون على المناقضات.

لقد عاشت هذه الأمة في تقاضات أشغالها أعداؤها بها عن حقوقها وعن أوطانها، وفرقوا وحدتها حتى لا تقوى على مقاومة أعدائها وتحرير أرضها، وتحرير ما استعبد من أبنائها، وما اغتصب من أرضها.

يخبرنا التاريخ أن لورنس القائد الانجليزي الخبيث حليف العرب ضد الأتراك المسلمين، غاظه أن يرى الأمة الإسلامية متوحدة يجمعها رباط العقيدة، ففكر وقدر، فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر، ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أضل شيطانه إلى اختيار شعار القومية العربية، وقد اختار الأتراك القومية الطورانية لتمزق هذه الوحدة، ويسهل القضاء على الدولة العثمانية التي تجمع الأمة على الإسلام. فكان له ذلك.

ولما استعصى المجاهدون في أندونيسيا على الاستعمار الهولندي، ارسلت هولندا مبشرًا اسمه جان لوك إلى مملكة أتشيه عرين المجاهدين، ليدرس أسباب فشل الاستعمار الهولندي في ترويض سكان هذه المملكة المجاهدين، واستقر فيها بضع سنين، وقدم دراسة لحكومة هولندا موجزها: إن المجاهدين متحددون وأقوياء لا تستطيع حكومة هولندا القضاء عليهم بالقوة واقتراح اقتراحين: الأول: إثارة النعرات القومية والعرقية. الثاني: إنشاء الحزب الشيوعي.

ولقد استجابت الحكومة الهولندية إلى رأيه، فأرسلت مهندسًا من هولندا فأسس الحزب الشيوعي هناك الذي اشغل المجاهدين بطرح الأفكار الشيوعية الاحادية لاشغال المجاهدين بالرد عليها. واسغال الناس والهائم عن التعاون مع المجاهدين.

وأثارت النعرات بين المجاهدين، واستطاعت أن تقرب فئة وأن تبعد فئة أخرى، فانقسم المجاهدون على أنفسهم، وما هي إلا سنوات قليلة جداً حتى حمل المجاهدون السلاح في وجوه بعضهم بعضاً، ودب التزاع بين قلوبهم قبل ذلك. فقضوا على أنفسهم بأنفسهم، واستقرت بعد ذلك مملكة اتشيه سنة ١٩٠٤ للاستعمار الهولندي.

وهكذا سلك الاستعمار الانجليزي والاستعمار الفرنسي والاستعمار الايطالي سياسة فرق تسد، ثم سلك سنتهم عملاً وهم من المسؤولين في بلاد المسلمين، فخضعوا لتقسيماتهم الجغرافية، واستجابوا لأفكارهم الغازية القائمة على سياسة ثابتة هي (فرق تسد).

وإن ما نراه في بلاد المسلمين من تقسيمات للوطن وللناس، ونسبة الناس إلى الأرض والإقليم دون نسبتهم إلى الاسلام والعقيدة والدين إلا تنفيذاً لهذه السياسة الفرعونية سواء كانت سياسة فرعونية في عهد موسى أو قبل عهده أو بعد عهده، وسواء كانت في عهود الاستعمار البغيض أو على أيدي تلامذة مناهج الاستعمار جمِيعاً في بلاد المسلمين.

فالتعصب من القاطن في سوريا إلى سوريته، والأردني إلى أردنية، والمصري إلى مصراته، والأفغاني إلى أفغانيته، والسوداني إلى سوداناته، والجزائري إلى الجزأرة، والتونسي إلى التونسة، والأردني إلى الأردننة، والمصري إلى المصرنة، واللبناني إلى اللبناني، وال سعودي إلى السعدنة، والعماني إلى عماناته، وسلطنته، والقطري إلى التقطير والقطرنة، واليمني إلى يمنه، والبحريني إلى بحرانيته، والكويتي إلى التكويت والكونية، والفلسطيني إلى فلسطيناته، تنفيذ للسياسة الفرعونية سواء كانت فرعونية استعمارية أو عربية أو أعمجية. وهذه الفرعونية هي التي كانت سبباً في احتلال الأوطان واستعباد الانسان. ولا زالت تصادر حرية الانسان وتندكرامته وعزته.

المقالة الثانية

الظالم يتوجس خيفة من ثورة المظلومين فيطش بهم

في الحلقة الماضية، ذكرنا بعض مظاهر علوه في الأرض، ومن هذه المظاهر أنه قرر أن يقتل الذكور من قوم موسى - عليه السلام - ويقى النساء بلا أزواج ولا أولاد. قال تعالى: ﴿إِن فَرْعَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يَذْبَحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وتذكر كتب التفسير أسباباً لهذه الجريمة البشعة التي يقنن لها الملك الطاغية فرعون. ومن هذه الأسباب أن المنجمين في ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من هؤلاء الذين يستضعفهم.

وهذا السبب غير مقبول شرعاً وعقلاً: إذ أن هذا الأمر غيبى ولا يعلم الغيب إلا الله، والمؤمن بحرب عليه أن يصدق هؤلاء المنجمين.

وإن استجواب فرعون لتنجيم هؤلاء الكهنة فإنه يدل على حمقه كما قال الزجاج رحمة الله: والعجب من حمق فرعون. فإن كان الكاهن الذي أخبره بذلك صادقاً فما ينفع القتل. وإن كان كاذباً فلا معنى للقتل.

وأقوى الأسباب في نظري للإقبال على هذه الجريمة ومارستها بوحشية، هو أن فرعون الطاغية كان يظلم الناس، ويستعبدهم ويقهرهم ويدلهم، ويسخرهم لخدمته وطاعته وفق هواه ومزاجه مما يولد عند هذا الشعب المقهور شعوراً بالظلم. وهذا الظلم يتضاعم يوماً بعد يوم، وكذلك الشعور به يتعمق ويتضاعم ويزداد، وفي النهاية المحتومة أن يقوم من بين هذا الشعب المستعبد من يتمرد على هذا الظلم وصاحبها، وأن يمرد غيره معه كذلك، وفي النهاية يطيح بعرش فرعون ونظام فرعون الظالم، وبسدنة هذا النظام وكباره ووزرائه.

نعم لقد كان هذا التخوف من فرعون وملأ فرعون حين قالوا: ﴿أَتَنْذِرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذْكُرُ وَالْهَتَّكُ﴾ [الأعراف: ١٢٧]. وقد سموا بالملأ لأنهم يملأون قلوب الناس خوفاً وذعراً وهلعاً وجرعاً، لأنهم يملكون أسباب القدرة والغيبة والتعذيب وإلحاق الأذى بمخالفتهم وإرهاقهم، وأذاقتهم من صنوف العنت والمشقة ما يجعل الولدان شيئاً.

وهذا السبب ليس محصوراً ولا مقصوراً على فرعون مصر في عهد موسى عليه السلام – ولكنه يجري في دم كل طاغية، ويتجاذب في شغاف قلب كل ظالم عاتية جبار. همه الوحيد أن يبقى على كرسي الحكم والسيادة. والناس تخضع لجبروته. وترکع لعبادته دون سواه، وتقول بقوله وتلغى عقولها التي كرمها الله بها – فجعلها مناط التكليف ومناط تقرير مصير أصحابها في الدنيا والآخرة.

لقد قال فرعون للمرتدين المستخرين المستعبدين حين حاول بعضهم أن يفكرون بعقله وأن يكون له رأي: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أُرِى وَمَا أُهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلُ الرِّشاد﴾ [غافر: ٢٩].

لقد رأينا حكامًا في بلاد العرب والمسلمين يحكمون شعوبهم حكماً فرعونياً، حكماً بالحديد والنار، وسلكوا من سياسة الترويض مع شعوبهم حتى أيقنوا أنهم روضوهم. وحينما ظهرت الحركة الإسلامية تدعو إلى استئناف الحياة الإسلامية وتحرير العالم الإسلامي من كل نير أجنبى. وقتل اليهود الغاصبين، وتحرير الأوطان والأنسان وقامت حماس، وكتائب الشيف عز الدين القسام تصلى بأوار نارها فراغة القرن العشرين على اختلاف ألوانهم وأجناسهم.

هبت الأنظمة الجاهلية بكل سلطتها تطارد الدعاء إلى الله في كل مكان وبخاصة المجاهدين الذين عروا هذه الأنظمة وأظهروا حقيقتها، كما عرى موسى عليه السلام فرعون وأظهر حقيقته بوضوح.

إن هذه الأنظمة قامت بهذا وتقوم به لأنها تخشى ما كان يخشأه فرعون. من أن تستيقظ هذه الشعوب من سباتها، وأن تصحو من غفوتها، وتنطلق لتحرير

أوطانها وانسانها ومقدساتها، فصبت جام غضبها على الذين حملوا مشعل الهدایة والنور والتحریر، تتخذ من وسائل الوقاية ما يقى الأوضاع الآسنة المتخلفة على ما هي عليه. ولكن آنی لها ذلك، فإن سنة الله ماضية في نصر من ينصره وخذلان من يخذله، وسيعلم الذين ظلموا أی منقلب ينقلبون.

المقالة الثالثة

فاستخف قومه فأطاعوه

إن القرآن يخبرنا عن فرعون مصر في عهد موسى - عليه السلام - أنه استعبد الشعب المصري وتآله عليهم فقال لهم: ﴿مَا علّمْتُكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. وقال أيضاً بعد أن جمع القوم: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] وقال للمصريين: ﴿أَلَيْسَ لِي مَلْكُ مَصْرٍ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْوِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تَبْصِرُونَ. أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبَيَّنُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢].

ولقد صادر عقول المصريين وأفهامهم واعتبر نفسه الوحيد الذي ينطق بالحقيقة والهداية والرشد، وما سواه سفيها لا يؤبه لقوله. ولا يسمع لرأيه، لأنه لا رأي إلا رأيه ولا صواب إلا ما ينطق به، قال تعالى حاكياً قوله: ﴿قَالَ فَرَعُونَ مَا أَرَيْكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلُ الرِّشادِ﴾ [غافر: ٢٩].

والسؤال الذي يطرح نفسه ما الذي جرأ فرعون على احتكار الحقيقة؟

وما الذي جرأه على استعباد الشعب؟

وما الذي جرأه على ادعاء الألوهية؟

وما الذي جرأه على ادعاء الربوبية؟

إن القرآن الكريم قد ذكر ذلك بوضوح الذي جرأه فقال: ﴿فَاسْتَخْفَ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسْقِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

لقد نظر فرعون إلى الشعب فوجده خائفاً ذليلاً، ليس من بينهم رجل رشيد، وليس فيهم رجل جريء ينطق بالحق ويتفوه بالصدق، ليس من بينهم من يرفض ألوهيته المزيفة، ولا يقاوم استكباره هو وحاشيته ورجال قصره الذين أذلوا الناس وسخروهم لصالحهم وجعلوهم خدماء لهم.

تأمل قوله تعالى: فاستخف قومه. وجدهم لا وزن لهم، لا وزن لعقولهم، لا وزن لرجلولتهم، فهم ليسوا رجالاً في نظره، لأن الرجال لا يستخفون. ولا يقبلون لأنفسهم أن يستخفهم أحد. وبالرغم من هذا الاستفزاز في الخطاب والمعاملة السيئة سلمووا له بما يقول، وأطاعوه في كل ما يأمر. حقاً إنه لا يطغى فرد في أمّة رشيدة، ولا في شعبٍ رشيد، وإنما يطغى ويفجر في أمّة سفيهه، وشعب سفيه سفاهة الفسق والفجور.

والسفه في اللغة هو الضعف. سواء كان ضعفاً في العقل أو الفهم أو الإرادة أو المروءة. والسفه الخفة، والخفة في العقل ضعفه، والخفة في التصرف، ضعف التصرف، والسفه الأحمق.

حقاً إنهم ما أطاعوه فيما يقول ويأمرون إلا لأنهم ضعاف مهازيل، ضعاف في عقولهم، ضعاف في إرادتهم، ضعاف في رجلولتهم، ضعاف في نخوتهم، ضعاف في غيرتهم على أعراضهم ودمائهم.

وإذا علمنا أن فرعون ليس اسمًا لحاكم مصر، وإنما هو اسم صفة لكل حاكم يتjabر في الناس ويطغى فيهم. فما أكثر الفراعنة في بلاد المسلمين، وما أكثر الفراعنة في أيامنا هذه.

إن فراعنة القرن العشرين قد طغوا وبغوا وأذلوا شعوبهم وصادروا حرياتهم، وباعوهم في سوق النخاسة الدولية بأبخس الأثمان.

وما كان للفراعنة في القرن العشرين أن يفعلوا بالناس هذه الأفعال الشنيعة من مصادرة حرياتهم، والتنازل عن أوطنهم، وإبعاد شريعتهم عن واقع الحياة، واستيراد شرائع لم يأذن بها الله ولا رسوله ولا صالح المؤمنين إلا يوم أن استخفوا بشعوبهم بعد أن أوصلواها إلى ما هي عليه من السفه.

إن فراعنة القرن العشرين لا يطغون إلا في شعوب سفيهه، شعوب مستضعفه شعوب شربت كأس الذل والمهانة حتى الشماة.

ولكن الشعوب لا تبقى على حالها، وإنما يقيض الله لها من يصرها بحالها، وأحوال الفراعنة الذين يحكمونها بالحديد والنار، فستتickle من سباتها العميق، وتنهض من كبوتها، وتمزق قيودها وتهجر فسقها، وتستأنف رجولتها ومرءوتها وكرامتها، وتحرر إرادتها ومن ثم تقضي على فراعنتها. قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

المقالة الرابعة

الطاغية يطارد المصلحين

لقد أدرك موسى – عليه السلام – خطورة المؤامرة الفرعونية التي شارك فيها الكبار والأمراء والوزراء والأعيان، وهذه المؤامرة تستهدف حياته عليه السلام، والتخلص منه باعتباره قائداً شعبياً، قد أوتي الحكمة في الفهم والعقل والتصرف. وهو يدعوا إلى التحرير والتغيير. إذ شعر بظلم فرعون وأعمدة الحكم وأقطابه. وقد نذر نفسه في مقاومة الظلم والظالمين، داعياً إلى أن ترد الحاكمة إلى الله تبارك وتعالى. وتنزع من فرعون والملائق من قوم فرعون.

لقد جاء هذا الرجل من آل فرعون ينصحه بالخروج فوراً من هذه البلدة الظالم حكامها، فخرج موسى عليه السلام خائفاً على نفسه من فرعون وزبانيته متربقاً إدراكه واللحوق به في أي لحظة والإمساك به وقتله.

تأمل كيف يفعل الطاغي الفراعنة بالأشراف. أنه القتل أو ترك الأوطان. وهجرها وهجر الأهل معها من أم وأخوة وأقارب وأرحام، وهذا أمر يصعب على نفس الرجل المؤمن. ولكن لا بد مما ليس منه بد. وأمام تكالب قوى الشر لجأ إلى رب تبارك وتعالى، مفرج الكرب، وكاشف الغمة، لجأ إليه بقلب ضارع يدعوه. سائل النجاة من مؤامرة المتأمرين، فهو وحده القادر على عصيمته من الناس. قال تعالى: ﴿رَبُّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

وبعد الدعاء أخذ بالأسباب فتوجه إلى أرض مدين بالشام، وسلك طريقاً لم يكن يسلكه من قبل فهو بحاجة إلى من يهديه الطريق الموصى إلى أرض مدين. فكان الهادي هو الله تبارك وتعالى.

ولقد استجاب الله دعاءه، فكشف عنه الغمة، وفوجئ كربته، وأوصله سالماً إلى

أرض مدين حيث لا تقع هذه الأرض تحت حكم فراعنة مصر الظلمة القتلة الكفراة الفجرة.

وما يجدر ذكره أن موسى عليه السلام قد تضرع إلى الله بهذا الدعاء قبل زواجه وقبل تكليفه بالرسالة. فمن أين اكتسب علم التوحيد واللجوء إلى الله؟

إن مما لا شك فيه، أن هذا الإيمان قد تناقله الناس جيلاً بعد جيل من ديانة يوسف عليه السلام ووالده يعقوب حيث حكم مصر قبل ذلك.

لقد وصل موسى - عليه السلام - إلى أرض مدين ثم نزل ضيفاً على الرجل الصالح في هذه الأرض فعرفه على نفسه، وقص عليه قصته. وذكر له رحلته، وأخبره أنه مطارد مطلوب دمه. فما كان من الرجل الصالح إلا أن أزال خوفه. وطمأنه على نفسه، قائلاً: ﴿لَا تخف بجوت من القوم الظالمين﴾ [القصص: ٢٥].

وكان موسى - عليه السلام - يلازم الشعور بمطاردة المخابرات الفرعونية، ويتوقع أن تقبض عليه في أي لحظة. لقد بدأ الرجل الصالح هذا الخوف وهذا التوقع فطمانه إلى أنه في بلاد لا تخضع لدائرة المخابرات الفرعونية، ولا تخضع لسلطان فراعنة مصر. فهو حر طليق الحركة. أمين على نفسه ودمه وكسبه.

أخي القاريء الكريم

رأيت كيف يفعل الفراعنة بالأتقياء المصلحين؟

رأيت كيف يطارد ورثة الأنبياء؟

رأيت كيف يغ رب ورثة الأنبياء والدعاة ويهجرون من أوطنهم؟

رأيت كيف يخرج المصلحون الدعاة من أوطنهم فراراً من بطش الظلمة؟

إنه طريق المصلحين، طريق مفروش بالأشواك، طريق الغربة ومفارقة الأوطان، إنه طريق الأبتلاء والاختبار لإيمان أصحاب المبادئ، فيفروا إلى الله متمسكون

بديينهم، مؤثرين ما عند الله على ما عند غيره من صالح ومنافع. ولو كانت هجرة الأوطان والأهل والأرحام ولكنها هجرة مؤقتة تنتهي بتحرير الأوطان والإنسان. كما انتهت رحلة موسى - عليه السلام - وكما انتهت هجرة المصطفى ﷺ بفتح مكة، أعتى قلاع الشرك. وتحرير المستضعفين.

المقالة الخامسة

فوائد الرعي لموسى – عليه السلام –

ذكرنا في المقالة السابقة أن موسى عليه السلام جاء إلى أرض مدين بعد المؤامرة القدرة التي كانت تستهدف حياته من فرعون ووزراء فرعون وأعيانه وكبارائه وأمرائه وأركان حكمه. وحل ضيفاً على الرجل الصالح من أرض مدين.

لقد لاحظ الرجل الصالح وأهل بيته قوة في موسى عليه السلام وأمانة كذلك. فعرض عليه بناءً على اقتراح أحده ابنته أن يستأجره، قال تعالى: ﴿يَا أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ إِنْ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَأْجِرْتَ الْقَوِيَ الْأَمِينَ﴾ [القصص: ٢٦].

والمتأمل في هذه الآية يجد الولايات العامة والخاصة ينبغي أن تتوافق في شاغليها أمران هما: الكفاءة والأمانة.

أما الكفاءة فهي تشمل المؤهلات العلمية والإدارية والفنية وغيرها من التخصصات المناسبة. وأما الأمانة فتشمل التقوى ومخافة الله والعدل في النظرة. وعدم المحاباة، والحرص على العمل ومراقبة الله في ذلك.

وهما أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر. فلا يقبل المبرز في كفاءته العلمية ومؤهلاته إذا كان غير متصف بالأمانة والتزاهة والورع ومخافة الله. ولا يقبل التقى الورع الزاهد إذا كان أمياً أو جاهلاً لا يتقن العمل الموكل إليه ولا غيره. حقاً لقد كان موسى عليه السلام قوياً في كفاءته، أميناً في دينه وتقواه ومعاملته كما لاحظت ابنه الرجل الصالح، وكما ثبتت سيرته بعد ذلك.

وهذه هي القاعدة العامة في اشغال الوظائف في كل دين وبخاصة في الإسلام، ينبغي أن يجمع صاحبها بين الكفاءة والأمانة، وكان الرسول ﷺ إذا تقدم

لديه قوي في إيمانه ودينه وقواه وورعه وغير كفاء في تولي ولاية من الولايات، كان لا يوليه ويصارحه بذلك. فقد قال له أبوذر - رضي الله عنه: «يا رسول الله أمرني، فقال له النبي ﷺ: يا أبا ذر إنك أمرت ضعيف لا تولين على اثنين ولا تولين على مال يتيم».

وكان أبوذر - رضي الله عنه - قد قال رسول الله ﷺ في أمانته ودينه وفضله: ما أظلمت الخضراء وما أقتلت الغراء رجلاً أصدق لهجة من أبي ذر.

أخي القاريء الكريم: لقد تعاقد الرجل الصالح مع موسى - عليه السلام - أن يعمل لديه راعياً ثمانية سنوات. وهذا العقد قد استوقفني. وتساءلت في نفسي ما الحكمة من هذا؟

ولقد ان kedح في روعي واستقر في نفسي أن موسى - عليه السلام - قد نشأ منذ ولادته ومدة طفولته وحتى بلوغه في قصر فرعون. حيث الحياة الرغيدة، والعيش الهانئ، تعود أكل أطيب الأطعمة وأشهها. وأن يلبس أجود الألبسة وأزهاها. وأن ينام على فراش وثير ويلتحف الحرير. انه تعود حياة المترفين وتتأثر بهذا الجو الذي كان يتقييد بنظامه في المأكل والمشرب، والمقام والمنام، والراحة والاستجمام، والخطاب والكلام، والتقاليد والعادات المتفشية في قصور الفراعنة.

لقد اختار الله تبارك وتعالى له بعد هذه الحياة مهنة الرعي، رعي الماشي من أغنام وغيرها. وهذه المهنة تكسب صاحبها التواضع، والشجاعة والرحمة والصبر وحب الخير.

فالراعي يعيش مع هذه الأغنام وينام بالقرب منها، ويعيش شظف العيش، ويشرف على خدمتها، فلا بد أن تتطامن نفسه لهذا ويألف هذا، حتى يصبح شيئاً مركزاً في نفسه. وهكذا حدث لموسى عليه السلام.

والرعي يكسب الراعي الشجاعة، فهو الذي يتصدى لكل حيوان مفترس ينقض عليها فيصرعه أو يطرده، فهو قائم على حراستها.

والراعي يكسب الراعي العطف والحنان، فهو يعايش هذه الأنعام، من إبل وبقر وغنم وهي تتواجد، فيقوم بخدمتها وحمل أججتها وإرضاعها، ويصبح هذا جزءاً من حياته، فتتشرب نفسه بالعاطفة نحوها، ومن ثم يكون عطفه على الإنسان الضعيف أقوى وأشد. وتكون عاطفته أغزر وأكثر نحو هذا الإنسان الفقير أو المظلوم أو المحتاج.

والراعي يتعلم الصبر من الراعي لما يجده من خشونة العيش وشظفه، سواء كان نوع الطعام أو حرارة الجو في الصيف، وبرودة في الشتاء، أو لغير ذلك من العوامل الكثيرة المؤثرة.

والراعي يتعلم في رعيه البحث عن الخير وإيصاله إلى من يحتاج إليه، ولو كان حيواناً من سائمة الانعام، أقول لقد انفتح في روعي أن الله تبارك اقتضت حكمته أن ينسى موسى عليه السلام، الحياة الرغدة الهائنة المترفة في المأكل والملبس والعادات والتقاليد التي عاشها في القصر الفرعوني، وينسخها من حياة موسى ويدلها بالراغي الذي أذهب كل هذه الصفات، وحل محلها صفات هي صفات الرسل حتى إذا نزلت عليه رسالة كان بهذه النفسية المتواضعه الرحيمة والشجاعة. وهكذا كان.

وخلاصة القول: إن حياة موسى في القصر الفرعوني قد أثرت فيه. وبالراغي قد مسحت كل الصفات والسلبيات التي أللها موسى في القصر الفرعوني في صغره ونشأ عليها وترعرع، كل ذلك كان بقدر الله وعنايته ورعايته. نسأل الله سبحانه أن يرزقنا التواضع والصبر والشجاعة وحب الخير، ويجريه على أيدينا لغيرنا ولأنفسنا وأرحامنا، وأن ينجينا من أي أثر من آثار الفراعنة وعاداتهم وتقاليدهم. انه نعم المولى ونعم النصير.

المقالة السادسة

موسى يدرك ظلم فرعون فيكرهه ويهاجر قصره

لقد نشأ موسى – عليه السلام – في قصر فرعون منذ صغره بأمر من ربه وقدره يوم أن التقى آلة فرعون ليكون لهم عدواً أو حزناً، ورغبت امرأة فرعون ألا يقتل هذا الطفل موسى. مؤملة أن يكون هذا الوليد مصدر سرور وسعادة لها ولفرعون، فتشبع بحضورتها له غريزة الأئمة عندها قال تعالى: ﴿وَوَحْيًا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفِتَ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزِنِي إِنَا رَادُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فالنقطة آلة فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجندهما كانوا خاطئين، وقالت امرأة فرعون قرءاً عين لبي ولبك لا تقتلوه عسى أن يفعلا أو نتخرجه ولداً وهم لا يشعرون﴾ [القصص: ٧، ٩].

أما هي، فقد كان موسى حقاً مصدر سعادة وسرور بالنسبة لها فيما بعد، إذ سعدت بتربيته والحنو عليه، وسعدت به يوم أن أرسله الله رسولاً، فآمنت به وكفرت بألوهية فرعون، وتبرأت من فرعون وعمله الظالم الفاجر الكافر. ودعت إلى الله أن ينجيها من فرعون وعمله، وأن يرزقها الجنة. وفضلت ذلك على حياة الملوك ونساء الملوك وترف الملوك، وسرفهم وسوء معاملتهم فقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لَيْ بَيْتَنَا فِي الْجَنَّةِ وَنَجْنِي مِنْ فَرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجْنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التاريم: ١١]. فاستجاب الله دعاءها وأسعدتها في الدارين، وهكذا انتفعت بموسى واتبعت دينه وتحررت من الشرك والظلم. أما فرعون آل فرعون فكان لهم موسى – عليه السلام – مصدر حزن، وعدوا قد قضى على ملكهم كما قال الله تعالى: ﴿فَالنِّقْطَهُ آلَ فَرْعَوْنَ لَيْكُونُ لَهُمْ عَدُواً وَحَزْنًا﴾ [القصص: ٨].

إن موسى – عليه السلام – قد عاش حياة القصور، فقصور الفراعنة، المملوءة

بالفسق والفجور، والظلم والعسف والطغيان، ولقد ترعرع فيها، وشب وكبر حتى بلغ سنًا ما بين ثمانية عشر إلى الثلاثين عاماً كما تذكر بعض كتب التفسير، وكان قوي البنian وكمال الخلقة قوي البأس والشکيمة، ولقد آتاه الله قوة في عقله وقوّة في جسمه، فكان حكيمًا، فقيهاً في الدين قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشْدَهُ آتَيْنَاهُ حِكْمَةً وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجِزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

لقد نشأ هذا الشاب وفتح عينيه على ظلم فرعون، وظلم فرعون من؟ إنه ظلم فرعون لقوم موسى فهو يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم، فيشيع الفساد الأخلاقي، والفساد الجنائي الذي يتمثل في سفك دماء الأطفال وإثارة الرعب في قلوب الآباء والأمهات والأخوان وسائر أفراد القوم لأنهم ليسوا أمناء على أنفسهم ولا على أبنائهم.

لقد أثرت هذه البيئة في نفس موسى - عليه السلام -، وأثرت هذه الممارسات الظالمه القاسية المت渥حشة في نفس موسى - عليه السلام - تأثيراً بليغاً، فكان من البدهي أن يتولد في نفس موسى شعور بالألم، والمرارة، مما دفعه بكل قوة إلى أن يرفض رفضاً قاطعاً هذا الظلم وأن يتمرد على الظالمين، وإن كانوا هم الذين ربوا في صغره، وعاش في كنفهم حتى بلغ أشده. بل لا بد أن يتعاطف مع قومه المستعبدين المظلومين. وإذا اقتضى الأمر أن ينصر المظلوم منهم على الظالم فينبغي أن ينصره ولا يتردد في نصرته مهما كانت النتائج المترتبة على ذلك. وهذا الذي كان.

والآيات تشي بأن موسى - عليه السلام - لم يعد حبيس القصر الفرعوني بعد أن كبر، بل استقل وخرج من القصر، وأصبح حر الحركة والتجوال. تأمل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشْدَهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حِكْمَةً وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجِزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤، ١٥].

وخروجه من القصر الفرعوني، كان نتيجة ما رأى من الفسق والفسق والظلم والظلم في حياة القصور. وشعوره بأنه يجب أن يقاوم الظلم والظالمين، فلا مجال له أن

يعيش في هذا الجو الموبوء هذا الجو الثن، رائحة الظلم فيه تركم الأنوف.

إن الآية السابقة تنص على أن موسى - عليه السلام - دخل المدينة يترقب، أي دخلها متخفيًا. حتى لا يعلم به أحد. وهذا يدل على أن العلاة فرعون ورجال القصر الفرعوني، وبين موسى - عليه السلام - قد تغيرت من إلى عداوة، ومن تعاطف إلى تدابر. فكيف حدث هذا؟

وما نتيجة هذا؟

هذا ما سنجيب عليه في المقالة التالية

المقالة السابعة

موسى ينتصر من المستكبرين للمستضعفين

إن الآيات القرآنية تقيد أن موسى - عليه السلام - قد خرج من قصر فرعون بعد أن كره حياة القصور والظلم والفجور فيها، وأنه وجد رجلين يقتلان أحدهما من قوم موسى المستعبددين، والأخر من شيعة الأسرة الحاكمة المعادية لموسى وقومه، فهبَ موسى يلبي استغاثة أحد المستعبددين من قومه فضرب الفرعوني بمجمع يده فكانت الضربة القاضية قال تعالى: **﴿فَوْجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَلَانِ هَذَا مِنْ شَيْعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْفَاهُ الَّذِي مِنْ شَيْعَةِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقُضِيَ عَلَيْهِ﴾** [القصص: ١٥].

إن القتل لم يكن مكتشوفاً للناس. بل كان لا يعلم به إلا الله، ثم ذلك الرجل من قوم موسى، فكيف وصل الخبر إلى فرعون؟

لقد تسرب قتل موسى للرجل الفرعوني إلى فرعون الطاغية ورجال قصره، ويبدو أن تسرب الخبر كان من قوم موسى عن غير قصد، وإنما إذا عاش الناس في جو الظلم والاستعباد والتنكيل، ورأوا من يقف في وجه هذا الظلم، يتصدى للظالمين وزبانيتهم، ويبلغ هذا التصدي أن يتتصف منهم وأن يقتل المعتمدي. فإنهم يسرون سروراً عظيماً لذلك، إذ وجد من بين هؤلاء القوم من يؤدب أعوان الطغاة، والطغاة. فتناقل قوم موسى هذا الخبر وأشاعوه حتى علم الخبر فوصل إلى فرعون.

ولقد قرر فرعون قتل موسى - عليه السلام - بعد تشاور مع رجال القصر، ويرى بعض المفسرين أن حكم فرعون هذا كان على سبيل مجازاة القاتل بالقتل. وإننا لو تأملنا حياة الحكام الفراعنة قديماً وحديثاً لا نجد أنهم يتعرضون للمساءلة والمحاكمة والمحاسبة، وإن قتلوا الأنفس وسرقوا الأموال وأهلكوا الحرث والنسل، بل إن فعلهم هذا مألوف.

ولو بقي موسى - عليه السلام - من رجال القصر الفرعوني مخلصاً لنظامه الطاغوتى وقتل عشرات الناس مكان الواحد الذى قتله، لم ينكر عليه ذلك. ولم يحاسب عن ذلك، فهذه هي أعراف ألفها الناس من الظلمة واستمرأوها.

إن الذى أقض مضجع فرعون، تحول موسى - عليه السلام - من حالة الولاء إلى حالة البراء، ومن حالة الصدقة إلى حالة العداوة، ومن حالة المروض إلى حالة الشائر على الظلم والظالمين، انه يريد أن يمرد المظلومين على جلادיהם، ولم يكتفى بالتنظير؛ بل باشر بنفسه يدافع عن المظلومين، ويلقن الظالمين درساً حازماً.

ولهذا لم يكن قرار قتل موسى قراراً قضائياً علينا، وإنما كان قراراً سرياً، كما يلجم الفراعنة والطواويت في تصفية خصومهم السياسيين سراً دون أن يعلم أحد. ولكن شاء الله تبارك وتعالى أن يطلع على أسرار المؤامرة رجل يحب موسى - عليه السلام - ويكره الظلم والظالمين، فجاء إليه يغذى الخطى مسرعاً يخبره بالمؤامرة عليه، وأن المتأمرين يستهدفون قتله فعليه أن يخرج من البلد قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ إِنَّ مَلَأَ يَأْتُرُونَ بِكَ لِيُقْتَلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

أخي القارئ الكريم يمكنك أن تأخذ أكثر من درس مما قرأت، ومن ذلك أن الولاء أمر قلبي وهو اعتقادى يتلخص في حب الله ورسوله والذين آمنوا، والأمر الثاني عملي وهو نصرة المؤمنين والوقوف بجانبهم، وكذلك اعانة المظلومين والمستضعفين.

وكذلك البراء فهو أمر اعتقادى يتمثل في كره الكافرين والظالمين والفاشسين، وأمر عملي سلوكي متمثل في معادة الكافرين والظالمين، وسائر أنواع الطواويت ومحاربتهم والانخلاع من كل ولاء لهم، والتبرؤ منهم بل ومقاؤتهم.

ولقد توافر في موقف موسى السابقة الولاء لله والذين آمنوا يحبهم وينصرهم، والبراءة من أعداء الله فرعون وأركان حكمه وجنوده يعاديهם ويقاتلهم ويقاومهم.

إن المغلوبين على أمرهم والمقهورين يبحثون عن محرر لهم تتوافر فيه صفات القيادة من قوة وشجاعة، فما أن ظهر موسى - عليه السلام - حتى أعجب الشعب المقهور به وامتدحوه. وامتدحوا فعله حتى شاع في جميع أرجاء مصر بين المستضعفين.

إن الطواغيت لا يطيقون أن يروا مخالفيهم على قيد الحياة، ويسعون للتخلص منهم بأساليب خسيسة وفي مقدمتها التصفية الجسدية.

قد يقدر الله لأي إنسان صالح أن يكون في مركز حساس، أو أن يمكنه من حضور اجتماع خطير لظلمة يعادون الإسلام ويخططون ضد الحركة الإسلامية ضد دعاتها. فيجب عليه والخالة هذه أن يخبر المعينين بهذا الأمر، حتى يدرسوا ويتخذوا التدابير الكفيلة بالتصدي له ومقاومته وابطال آثاره. وهذا من النصح لله ولرسوله وللمؤمنين، فإن النصح في الإسلام إرادة الخير للمنصوح له.

فقهنا الله جميعاً في الدين. وأقدرنا على استنباط الحكم وال عبر والعظات والدروس من القصص القرآني. ووفقنا للاستفادة من هذه الحكم وال عبر في عملنا الإسلامي وسيرنا الحركي المنظم، لاستئناف الحياة الإسلامية وإقامة الخلافة الراسدة على منهاج النبوة.

المقالة الثامنة

يتآمرون على أبناء جلدتهم ارضاء لفرعون

لقد ذكرنا أن فرعون علا في الأرض واستعبد شعبه وسفك دماء المستضعفين يوم أن كانت لديهم القابلية للاستضعاف. إذ استخفهم لضعفهم وفسقهم. قال تعالى: ﴿فَاسْتَخْفَ قَوْمَهُ فَأَطْاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسْقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

لقد أرسل الله تبارك وتعالي موسى - عليه السلام - إلى فرعون وهامان وقارون، يدعوهم إلى الإيمان بالله وتحرير الشعب المستعبد الخانع تحت كابوس فرعون وهامان وقارون وسائر رجال القصر الفرعوني وحاشيته. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسَلَطْنَانَ مُبِينٍ، إِلَىٰ فَرَعْوَنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤].

إذا تأملت أخي القارئ الحبيب هذه الآية تجد أن الله تبارك وتعالي قد ذكر بجوار فرعون هامان وقارون وقد خصهما بالذكر باسميهما من دون ملأ فرعون. هذه الخصوصية ترجع إلى أنهما أعمدة الحكم وأسس النظام الفرعوني. مع أن هارون ليس من قوم فرعون، وإنما هو من قوم موسى. وقوم موسى وقارون يقايسون من ظلم فرعون وطغيانه، فهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويُسخرهم كالدواب لخدمته.

أما إن قارون من قوم موسى فقد أخبر القرآن بذلك. قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمٍ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَالِحَهُ لَتَنْتَهُءُ بِالْعَصْبَةِ أُولَئِكَ الْقَوْمُ﴾ [القصص: ٧٦].

إن مما يلفت النظر أن قارون كان غنياً وحرصه على المال دفعه ليرمي في أحضان فرعون الطاغية، وتخلى عن قومه بسبب مصلحته الشخصية المتهمة عند فرعون، والعيش في كنفه.

ويؤخذ من هذا أيضاً، أن فرعون عليه اللعنة يستطيع أن يشتري الأشخاص ويربطهم بحاشيته لقاء لعاعة من لعارات الدنيا من جاه أو مال، على الرغم من كثرة أموالهم.

يشتري هؤلاء ليكونوا أصفياء عنده، وأعداء لأقوامهم، يؤيدون فرعون في ذبح أبنائهم واستحياء نسائهم.

هكذا يستغل عبيد الدنيا من أهل الدنيا استغلالاً بشعاً، استغلالاً يتنازلون فيه عن كل شيء، عن آبائهم عن أبناءهم، عن أقاربهم، عن كرامتهم.

وما يؤسف له أن هذا الأسلوب لم يكن في عهد فرعون مصر الطاغية، ولا على يده - لعنه الله - فحسب، بل إنه أسلوب قديم حديث، متجدد في كل زمان ومكان، أسلوب شراء الرجال، بشيء من المال أو الجاه أو المركز. وهذا الشيء زهيد تافه، وهؤلاء الفراعنة يأخذون منهم ثمناً باهظاً جداً. وضع مصيرهم مع مصير الطغاة الفراعنة، الدفاع عن مفاسد الفراعنة وبطشهم، المشاركة في البطش وسفك الدماء، التخلص من الأهل والأرحام، التخلص من المظلومين من أبناء جلدتهم. محاربة دعاء التحرير والتوحيد من أقوامهم الذين جاءوا لتحرير هؤلاء المستضعفين.

تأمل قارون و موقف قارون من موسى، انه يكرر ما يقول فرعون تماماً. إن موسى الذي جاء بالحجج الدامغة، والبراهين الساطعة على توحيد الله، وتحرير المستضعفين الرازحين تحت جبروت فرعون يقول عنه ما قاله فرعون: ساحر كذاب.

يقول هذا عن موسى بعد أن قامت الحجج على أنه صادق صدوق، وأنه رسول التحرير والتوحيد. يقول هذا مكابرًا، يدفعه حرصه على مصلحته الشخصية، وتقربه من فرعون الطاغية حفاظاً على مركزه وحظوظه، إلا أنها حظوة الاتباع العبيد لا حظوة السادة الأشراف الأحرار.

إن ما يجعل العيون تتفجر دماً أن يوجد من المسؤولين في عالمنا المعاصر من يشتري الرجال بالجاه والسلطان. ويجعلهم يطوفون في فلكله، كما يدور الحمار

بالرحي، ويردد ما يقولون كما تردد الببغاء ما تسمع، دونوعي أو إدراك لخطورة ما يقال. وإن مما يثير الأحزان والأشجان في هذا الزمان النكد، ويؤلم أشد الألم أن يقبل نفر من الناس ويرضوا أن يكونوا سلعة رخيصة تباع وتشترى في أسواق النخاسة، يقبلون أن يضعوا النير في أعناقهم، وقد خلقهم الله أحرازاً، وحرم عليهم أن يسعوا أنفسهم لأن الأحرار لا يباعون، ولا ثمن لهم ولو كان ملء الأرض ذهباً.

حقاً إني أعجب من هؤلاء الذين رضوا لأنفسهم واختاروا حظوة الأذلاء لا الأعزاء، والأذناب لا الرؤوس والأشرار لا الأخيار.

ولكنني أذكر حديث الرسول ﷺ: إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى «إذا لم تستح فاصنع ما شئت». إن إنعدام الحياة يدفع صاحبه إلى كل ذلك وأكثر من ذلك.

وأخيراً، فإننا نضرع إلى الله العزيز الكبير المتعال، أن يرزقنا الحياة الوفر الذي يحررنا من استعباد الدنيا واستعباد أهلها، وأن يزهدنا في الدنيا فلا تكون أكبر همتنا ولا مبلغ علمتنا. ونضرع إليه سبحانه أن يحررنا من الهوى والضلالة والفتنة، وبخاصة فتنة المال والجاه والسلطان، الذي أعمى قارون عن الحق وأعمى إخوة قارون في عالمنا المعاصر فتخلوا عن المظلومين الجائدين ووقفوا بجانب الظالمين، بل كانوا هم الظالمين المستكبرين.

المقالة التاسعة

مخاطبة الفراعنة تتبع حسب الأحوال: (لكل مقام مقال)

لقد كلف الله تبارك الله تعالى موسى - عليه السلام - وأخاه هارون بالذهاب إلى فرعون ودعوته إلى الإيمان بالله وتحرير الشعب المستعبد من طغيانه. قال تعالى: ﴿إذْهَبْ أَنْتَ وَأَخْوَكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنْبِيَ فِي ذَكْرِي، إِذْهَا إِلَى فَرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيَنَا لَعْلَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشِي، قَالَا رَبُّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغِي، قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٢ - ٤٦].

إن القرآن يسجل في هذه الآيات أن فرعون موسى طاغية ظالم، والله أرسل موسى وهارون ووصاهمما أن يخاطبا بهما بأسلوب لين رفيق رقيق، وأن يتلطفا في معاملته ويجاملاه بأرق العبارات طمعاً في إيمانه، وهذا من حلم الله تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره، وهو إذ ذاك أدرى من خلقه بفرعون.

لقد أوصاهمما رب تبارك وتعالى في هذه المرحلة لهذا الطاغية أن يكترا من ذكره سبحانه، ولا يفترأ لحظة واحدة فإن ذكر الله يشعر الذاكر بأن الله معه، يركن إلى ركن ركين، وحصن منيع، فيبعث في قلبه الأمان والأمان، ويسكن في نفسه الاستقرار والطمأنينة، فهو الحافظ وهو العاصم وهو النافع وهو الضار، بيده ملكوت كل شيء، وهو على كل شيء قادر.

لقد تقدم موسى وهارون - عليهم السلام - بمخاطبة فرعون بأسلوب هين لين، فأنكر نبوتهم ورسالتهم، فقدموا له معجزتين: معجزة العصا تقلب إلى أفعى، ومعجزة اليد التي تخرج من تحت إبطه بيضاء تتلألأً بعد أن كانت سوداء ثم تعود إلى حالها.

لقد كان ذلك بناء على طلب من فرعون أن يأتي بما يدل على رسالته، ولكن فرعون أمام هاتين المعجزتين استكبار وعتا عتواً كبيراً، وواجهه موسى بالحملات الظالمه، والافتراءات الباطلة، بأن ما جاء به هو ضرب من السحر، وعند فرعون من السحرة من يأتي بأكثر مما جاء به موسى من المعجزات. وأن موسى جاء يتآمر على فرعون وعلى حاشيته ليزيل سيادتهم عن مصر. تأمل قوله تعالى في موقف فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كَلَّهَا فَكَذَبَ وَأَبَىٰ. قَالَ: أَجْئَتْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسُحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٥٦، ٥٧].

إن مما لا شك فيه أن موسى - عليه السلام - وأخاه هارون قد جاءا برسالة التوحيد والتحرير، توحيد الله والغاء ألوهية فرعون، وتحرير المستضعفين من ظلم فرعون، وهذا الذي أغضب فرعون، وأغضب هامان وقارون، وأغضب رجال القصر والحاشية والملاء من قومه، أي الكبار والأمراء والوزراء، وسموا بذلك لأنهم يملأون قلوب الناس خوفاً وجزعاً وهلعاً لما لهم من قوة وبطش وصولة وجولة ودولة، وغيرهم لا صولة له ولا دولة ولا حيلة.

ومما يجدر ذكره أن كل فرعون من الفراعنة يخشى من دعوات الرسل والمصلحين، لأنها دعوات تحرير وتوحيد، ودعوات يستجيب لها الناس ويتفاعلون معها، لأنها جاءت لإنقاذهم. فهم مستضعفون في الأرض، مستعبدون، قد استعبدتهم الفراعنة ووزراؤهم وأمراؤهم. وهم يبحثون عن منفذ ينقذهم ومحرر يحررهم فلا يجدون إلا الرسل.

نعم لقد أدرك فرعون خطورة دعوة موسى وأثرها على زوال سيادته، وفرعون هذه الأمة أدرك خطورة دعوة الاسلام على سلطاته وزعامته فكرهها وقاومها، وأدرك الأعرابي الفقير حقيقة هذه الدعوة، دعوة التوحيد بأنها دعوة تحرير للجماهير المستعبدة، حين سمع رسول الله ﷺ كلمة التوحيد لا إله إلا الله فقال له: هذا أمر تكرهه الملوك، وقال آخر: هذا أمر ستحاربك عليه ملوك العرب والعجم.

والرسول نفسه كان يقصد من كلمة التوحيد التحرير. تحرير العقل من

الحرافات والأوهام، وتحرير النفس من الخوف من الطواغيت، وتحرير النفس من الخوف على الرزق والأجل، وتحرير المستضعفين من المستكبرين، واستخاليف المستضعفين وتدمير المستكبرين، تأمل قول الرسول ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله كلمة تسودون بها العرب والعجم». إنه يريد تحطيم مملكة الطاغوت العربي، وممالك الطاغوت الأعمى، سواء كان طاغوتاً رومانياً أو فارسياً. وقد حطم الرسول ﷺ نظام الطاغوت العربي، كما حطم أصحابه نظام الطاغوت الفارسي. ونظام الطاغوت الرومي.

إن ما يجدر ذكره هنا، أن الأسلوب الذي بدأ به موسى - عليه السلام - يخاطب فرعون: قولاً له قولاً لينا، قد تغير عندما وقف فرعون يسيء الأدب مع موسى - عليه السلام - ويكتبه ويتهمه بالسحر، وأنه مسحور فوقف موسى ينكر بطش فرعون ويتحداه وينذره بالهلاك وسوء العاقبة وأنه هالك لا محالة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيْنَاتٍ فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءُهُمْ فَقَالَ لَهُ فَرَعُونَ: إِنِّي لاأُظْنِكُ يَا مُوسَى مَسْحُورًا، قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لاأُظْنِكُ يَا فَرَعُونَ مُثْبُرًا، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْرِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقَنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ [الاسراء: ١٠١ - ١٠٣].

تأمل أخي القارئ رد موسى - عليه السلام - على سوء أدب فرعون حينما اتهمه بأنه مسحور قد اختلط عقله، وأن البيانات التي قدمها مجرد سحر مسحور: إني لأظنك يا فرعون مثبوراً، والظن هنا الاعتقاد والجزم، أي أني أجزم بأنك يا فرعون هالك خاسر لا محالة.

أخي القارئ الكريم:

يمكنا بعد تدبر ما سبق أن نستخلص منه دروساً وعبرًا كثيرة منها:
- إن رسالة الرسل والمصلحين والدعاة تتلخص في تأليه الله وتوحيده وتحرير المستضعفين.

- حب الزعامة عقبة كأداء في نفوس الطغاة يمنعهم من الإيمان والاستجابة
لدعوة الحق وانصاف المظلومين.

- الأسلوب في مخاطبة المدعوين يختلف من شخص لآخر، ومن طاغوت لطاغوت، ومن حالة لأخرى، فهو لا يأخذ صورة واحدة، وإنما يتغير بتغير الظروف والأحوال، فالبداية تقتضي الملاطفة في القول واللين في التخاطب، وفي النهاية يتاسب الأسلوب مع موقف الطاغوت، فإن كان متهدياً ومتهماً ومكذباً، يواجهه بالتحدي والتصدي كما كانت نهاية الخطابة لفرعون.

- أسلوب التشكيك الذي سلكه الطاغية فرعون مع موسى قوله: ﴿وَإِنِّي لاأُظْنِكُ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾ [الاسراء: ١٠١]، أسلوب خبيث، هو زرع الشك في نفوس الناس تجاه موسى ورسالة موسى. وهو أسلوب يسلكه الطاغية الفراعنة بين أفراد الشعب الواحد حتى يفقدوا الثقة بكل شيء وبجميع الناس، وتصل الحالة إلى مستوى أن يفقد الناس ثقتهم بأنفسهم ويخشى بعضهم من بعض، ويشك بعضهم في اخلاص بعض، وهذا ما يهدف إليه الطاغية في كل زمان ومكان. فليحذر الدعاة والمدعون هذا الأسلوب ولا يخدعوا به.

المقالة العاشرة

حملات الإعلام الفرعونية لم تؤت ثمارها الخبيثة

إن الذي يقرأ الآيات القرآنية التي تحدثت عن قصة موسى - عليه السلام - وفرعون الطاغية - لعنه الله - والملائكة والناس الصالحون. يلاحظ أن موسى - عليه السلام - كان يقدم الآيات البينات، والحجج الدامغات على صدق نبوته ورسالته. ويلاحظ في نفس الوقت أن فرعون قد عجز عن مواجهة الحجة بالحجية، والفكرة بالفكرة، وكان يغطي عجزه هذا بأساليب كثيرة، ومن هذه الأساليب توجيه الحملات الإعلامية الكاذبة نحو موسى - عليه السلام - ودعوته، قاصداً من ذلك تشكيك الناس في دعوته، وتشويهها في نفوس الناس، ومن ثم عدم تعاطف الناس معه ولا اعتناق فكرته ودعوته، وهادفاً إلى إقناع الناس بالواقع الأسن الذي يعيشونه ليرضوا به.

لقد حدثنا القرآن عن اتهام فرعون لموسى بالكذب في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَأُظْهِرُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٧] واتهامه موسى بالسحر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُمَّ الَّذِي عَلِمْتُمُ السُّحُرَ﴾ [طه: ٧١] واتهامه باختلاط العقل والجنون في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَأُظْنُكُ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الاسراء: ١٠١] واتهامه بالفساد في قوله تعالى: ﴿هُذُرُونِي أَقْتُلُ مُوسَى وَلَيَدْعُ رَبِّهِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَدْلِلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يَظْهُرَ فِي الْأَرْضِ فَسَادٌ﴾ [غافر: ٢٦].

ولكن موسى - عليه السلام - لم يعبأ بهذا النفيق، ولم يكتثر بهذه الإشاعات المغرضة، والاتهامات الباطلة، وبقي مصراً على موقفه ثابتاً على مبدئه، يبشر به، ويحاور الآخرين، حتى أدرك الناس حقيقة افتراءات فرعون، وصدق دعوة موسى عليه السلام.

ومما يجدر ذكره أن الذي يعيش مع القرآن الكريم، يلاحظ بسهولة ويسر أن

أعداء الدعوات التغييرية الاصلاحية من الطواغيت والفراعنة في الأزمنة المختلفة والأصقاع المتباينة يسلكون نفس المسلك، ويثيرون نفس التهم، ويقفون نفس المواقف من أصحاب هذه الدعوات.

ولقد سجل الله تبارك وتعالى، تهمهم الباطلة للدعاة والرسل التي اتفقوا عليها وتناقلوها جيلاً بعد جيل في كتابه العزيز، فقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوْا مَعَهُمْ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

لقد اجتمعوا في الضلال والطغيان ومقاومة الرسل والدعاة. وأجمعوا على معاداتهم وتوجيه التهم الباطلة الكاذبة، والافتراءات الظالمة النابعة من تلك النفسية الخبيثة، والصفات الذميمة التي اجتمعوا فيها وتوافقوا عليها. وشنوا حملة شعواء نحو الرسل والدعاة على تعاقب الأجيال والأزمان واختلاف الأصقاع والبلدان.

وهذا توجيه رباني للدعاة واتباع الرسل، ألا يتأثرؤا بهذه الحملات الاعلامية الظالمية الكاذبة المفتراء، وإن أكبر دليل على أنهم على حق، ووقف هؤلاء الطواغيت يكيلون لهم هذه التهم الجائرة الزائفة، فعليهم أن يثبتوا على مبادئهم. وأن يستمروا بنشاط في تبليغ الدعوة وكسب الأنصار، حتى يكتب لهم النصر في الدنيا، والفوز في الآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّا لِنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمُونَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّار﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

وسمعنا كثيراً من فراعنة القرن العشرين من يتهم الشهيد الحبيبي سيد قطب بأوصاف لا تledo الكلمات التي أطلقها فرعون وغيره من الطواغيت. وسمعنا في أرض الشام من يتهم الاخوان المسلمين بعملاء كامب ديفيد، وعميل كامب ديفيد يطاردهم ويزجهم في غياوب الزنازين والسجون.

لقد سمع الناس وقرأوا في وسائل الاعلام المختلفة وصف المجاهدين بالمتطرفين، والدعاة بالأصوليين، لقد سمعوا من أكثر من فرعون يتهم الذين يذلون أرواحهم

من أجل تحرير أو طانهم من عدو غاصب، بأنهم أرهابيون يجب أن يطاردوا فوق كل أرض وتحت كل سماء.

ومن قبل وَصَفَ فرعون هذه الأمة (أبو جهل) سيد ولد آدم سيدنا محمد بأنه قاطع أرحام في دعائه قبل أن يتوجه إلى بدر لقتال المسلمين، بل تعلق بأسنار الكعبة وتضرع إلى الله قائلاً: «اللهم من كان أقطعنا للرحم وآتنا بما لا يعرف فأحنّه الغداة». فلا غرو إذا سمعنا عن فراعنة القرن العشرين كلاماً أشد عن اتباع سيد المرسلين من الدعاة والمجاهدين الذين نذروا أنفسهم لدين الله. وخلصت نفوسهم من حظوظ نفوسيهم، فعاشوا قرائين يمشون على الأرض.

المقالة الحادية عشرة

إنه المنطق المعكوس

إن الحملات الإعلامية الظالمة التي أطلقها فرعون تشير الشكوك حول موسى، لم تجد فنيلاً ولم تحقق شيئاً من أهداف الطاغوت. ولكنه أخذ يبحث عن وسيلة أخرى لعلها تؤتي أكلها، وهذه الوسيلة - وسيلة التحرير - على موسى - يوحى لعملائه ولوزرائه وكباره بأن يقوموا بمحاجين على صبر فرعون على موسى وهو يريد التغيير والتحرير، تحرير هؤلاء المستضعفين الذين يرزحون تحت كابوس فرعون، وزرائه وأمرائه وكباره وعملائه.

لقد وقف هؤلاء يحرضون فرعون على موسى **﴿وَقَالَ الْمُلَأُ مِنْ قَوْمٍ فَرَعُونَ أَتَدْرِي مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذْرُوكُمْ وَآلَهَتُكُمْ﴾** [الاعراف: ١٢٧].

أما فرعون الطاغية فالقرار عنده واضح ومعد وسابق. إذ كان يقتل الرجال ويترك النساء، فيفسد أخلاقياً وجنائياً. ولهذا فقد باشر فوراً. بالاستجابة إلى هذا التحرير المرسوم فقال: **﴿فَسَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقُهُمْ قَاهِرُونَ﴾** [الاعراف: ١٢٧].

وقال فرعون محرضاً ومستفزًا: **﴿ذَرُونِي أَقْتُلُ مُوسَى وَلِيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَدْعُ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يَظْهُرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ﴾** [غافر: ٢٦].

إنه المنطق المعكوس تماماً الذي ألفه الفراعنة والطواحيت، أن يتهموا المصلحين بالإفساد ويرتبوا على هذه التهمة الباطلة العقوبة القاسية الباطلة، الاعدام شنقاً أو حرقاً أو غير ذلك من صور الاعدام.

إن المنطق الفرعوني يقول: إن موسى الذي جاء داعية للتوحيد والتحرير، هو مفسد يخشى من خطره على نظام فرعون، وهو الدين الفرعوني هنا **﴿إِنِّي أَخَافُ**

أن يبدل دينكم》 [غافر: ٢٦] بأسقاط الشرك، وإقامة التوحيد، واسقاط حاكمية البشر، للبشر واعلان حاكمية الله على البشر.

أما فرعون الذي سام الناس خسفاً وقتل آلاف الأطفال الرضيع، وأذل رقاب الناس وفرقهم شيئاً وأحراضاً، وهؤلاء الفراعنة الذين قتلوا مليوناً من المصريين المستضعفين ليبنوا ما سمي الاهرامات ليقبر فيها الفراعنة، فهوئلاء مصلحون. وأما موسى فهو في نظر فراعنة مصر الطاغة مفسد، وهو أيضاً في نظر رجال القصر وحاشيته الطاغية من الوزراء والكهنة والأمراء والاتباع مفسد يستحق القتل.

إن المنطق المعكوس لم يكن حدثاً وقع في عهد موسى ومن فرعون موسى فحسب، بل إنه المنطق المعكوس عند كل الفراعنة قديماً وحديثاً. في الأمصار المتباعدة والأقطار المختلفة.

ألم يقف فرعون هذه الأمة أبو جهل نفس موقف فرعون مصر في عهد موسى عليه السلام، ألم يتعلّق فرعون هذه الأمة بأسنار الكعبة ويقول: اللهم من كان أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف فأحنّه الغداة. أي أهلكه أول النهار.

فهو يزعم أنّ الرسول مبتدع وقاطع أرحام، أما الخبيث أبو جهل فهو واصل أرحام ويصلّي بالليل والناس نيام!.

ولقد استجاب الله دعاء أبي جهل فأهلك قاطع الأرحام، وصعد عبدالله بن مسعود على صدر أبي جهل يريد أن يحرز رقبته، فقال أبو جهل: ملن الدائرة اليوم؟

قال ابن مسعود: لله ولرسوله وللمؤمنين يا عدو الله.

قال: لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتفعاً صعباً.

حقاً إن فرعون هذه الأمة أشد من فرعون موسى، فإن فرعون موسى لما أدركه الفرق، آمن وأعلن إيمانه برب موسى وهارون. أما فرعون هذه الأمة فقد أصر على كفره وقد رأى بأم عينيه قدرة الله ونصره للمؤمنين واحلاك الكافرين.

وإن فراعنة القرن العشرين أوقع وأصلف من فرعون هذه الأمة ومن فرعون

موسى، لأنهم يرون الدلائل والبراهين الربانية وهم يقايسون سكرات الموت، وفي النزع الأخير. وقد بلغت أرواحهم حلاقيمهم فلا يعتبرون ولا يتعظون، بل تأخذهم العزة بالاشم، حسبهم جهنم وبئس المهد.

وما يجدر ذكره أن الطواغيت الفراعنة في كل زمان ومكان حين يفلسون فكريًا وعقديًا ولا يجدون من الحجج البراهين ما يدفعون الأفكار الاصلاحية والتغييرية، فيبحثون عن وسائل لتكتميم أفواه الدعاة. كالتهديد والحملات الاعلامية الظالمة والمطاردة، والنفي والتغريب، حين يستنفذون كل الوسائل في الدفاع عن سلطانهم وسلطاتهم التي اغتصبوها في غفلة من الجماهير، يلجأون إلى أسلوب التصفية الجسدية، قتل الدعاة، ظنًا منهم أن بقتلهم تقتل الدعوات، وما علموا أن باستشهادهم وبدمائهم الزكية تزکو شجرة الدعوة فتضرب جذورها في أعماق النقوس وأغصانها في شغاف القلوب كالشجرة المروية بالماء، تضرب جذورها في أعماق الأرض، وتقبس أغصانها في كبد السماء. تؤتي أكلها كل حين بأمر ربها.

المقالة الثانية عشرة

ثبات موسى وتحديه لفرعون حين قرر سفك دمه

لقد انقدح في روبي أن فرعون موسى وكل فرعون طاغية في شتى الأزمنة والأمكنة يلجأ إلى أسلوب التصفية الجسدية حيث لا يجدي غيره. ومن هنا قرر فرعون أن يقتل موسى وقد عجزت كل الوسائل الأخرى عن تحقيق مراده. فماذا كان موقف موسى عليه السلام؟

هل استجاب لطلب فرعون؟

هل انهارت الروح المعنوية عنده؟

هل استسلم لإرادة فرعون الظالم؟

إن القرآن يخبرنا أن موسى - عليه السلام - بقي ثابتاً كالطُّودِ الأشْمَ، عزيزاً رافعاً رأسه. لم يجبن، لم تلن له قناة ولم تهن له عزيمة، إنه لجأ إلى ركن ركين وحصن منيع. لجأ إلى مصدر العزة والكرامة والمنعة، لجأ إلى واهب الحياة وآخذتها، لجأ إلى مالك الملك الكبير المتعال، لجأ إلى الله تبارك وتعالى وإلى حماه. ولقد عبر عن هذا اللجوء الكريم المنبع بقوله لما سمع اعلان حكم اعدامه على لسان فرعون الطاغية قال: ﴿إِنِّي عَذَّتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مَنْ كُلَّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

لقد لجأ لله فنجاه من ظلم فرعون، وأهلك فرعون وقارون وهامان وجندهم وأتباعهم. وفي هذا درس وأكثر أن الذي يلجأ إلى حمى الله ينقذه الله تبارك وتعالى من مؤامرات اعدائه ويهلك اعداءه. وهذا ما حصل لفرعون إذ دمر الله عرشه ومكنته للمستضعفين مكانه.

إن الذي لا يؤمن بيوم الحساب ظالم باطش، لأنه لا يعتقد الجزاء على أفعاله في

الحياة الآخرة. ويعتقد أن نهاية المطاف عنده هي هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعدها، وبالتالي يقتل ويسفك ويفسد ولا يتجلجح صدره، ولا يرف طرف جفنه إن سفك الدماء وأزهق آلاف الأرواح.

أما المؤمن بيوم الحساب، يعتقد أن الحياة الدنيا ليست هي دار القرار والاستقرار، بل هي دار مر لدار مقر، وهي بريد الآخرة، وأن الدنيا دار ابتلاء، والآخرة هي دار الجزاء، وعلى هذا فهو لا يتكبر لأن التكبر صفة للخالق سبحانه. وهو يتواضع امثلاً لأمر ربه ورجاء أن يثبته سبحانه على هذا التواضع برفع المنزلة عند الله في الجنة.

وإيمانه بالآخرة يدفعه بأن يجعل الدنيا كلها مزرعة للآخرة، فلا يعتدي على الأنفس والأموال والثمرات، بل يحافظ عليها، ويفرغ كل ما في وسعه من جهد وجهاد من أجل ذلك.

أخي القارئ الكريم: إن الذي جرأ فرعون على ظلم الناس وقتل الأطفال وتصفيتهم على قتل موسى هو كفره بالله، وتكبره على الخلق، وعدم إيمانه بالحياة الآخرة التي يجزي الناس فيها على أعمالهم. إن كانت خيراً فخير، وإن كانت شرّاً فشر: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يُرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يُرَهُ﴾ [الزلزلة: 7، 8].

أخي القارئ الكريم:

إن القرآن يحذرنا من الفراعنة، ويصبرنا بصفاتهم وينفرنا منها، حتى لا ننزلق فيما انزلقوا فيه من الكفر والتكبر والتجبر، والضلالة والدعوة إلى النار.

والقرآن الكريم يأخذ بأيدينا ويرشدنا إلى عدم الخضوع لإرادة هؤلاء الفراعنة ومواجهتهم بالاستعلاء اليماني، والعززة اليمانية حتى تكون من أهل السعادة في الدارين.

والقرآن أيضاً يرشدنا إلى أن الإيمان بالآخرة والحساب والعقاب يوجد ضميرأً حياً يقطأ عند المؤمن، إنه دائم المراقبة لصاحبه حتى لا يقع فيما وقع فيه المتكبرون المتجررون الذين لا يؤمنون بيوم الحساب، إنه طريق النجاة من النار.

نَسْأَلُهُ تَبَارِكَ وَتَعَالَى أَنْ يَحْرِمَ أَجْسَادَنَا وَأَجْسَادَ آبَائِنَا وَأَمَهَاتِنَا عَلَى النَّيْرَانِ وَأَنْ
يَطْهُرَ أَلْسِنَتِنَا مِنَ الْكَذْبِ، وَأَعْيَنَا مِنَ الْخِيَانَةِ. وَنَفْوُسُنَا مِنَ الْعَجَبِ وَالْغَرُورِ، وَقُلُوبُنَا
مِنَ الْغَلِّ وَالْحَقْدِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَأَنْ يَكْسِرَ أَعْنَاقَ الْأَكَاسِرَةِ وَيَقْصُمَ ظَهُورَ
الْقِيَاصِرَةِ، وَيَهْلِكَ الْفَرَاعِنَةِ الْجَيَابِرَةِ كَمَا أَهْلَكَ فَرْعَوْنَ مُوسَى. وَمِنْ عَلَى الْمُسْتَضْعِفِينَ
فِي الْأَرْضِ فَجَعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَجَعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ.

المقالة الثالثة عشرة

ديمقراطية فرعون

لقد أقام موسى - عليه السلام - الحجة الدامغة على صدق رسالته بمعجزات كثيرة تجعل من عنده عقل يؤمن برسالته، ولكن فرعون واجه موسى - عليه السلام - بالتكذيب واتهامه بالسحر، وأن عنده من السحرة ما يتغلبون بسحرهم على سحر موسى.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُرِينَاكَلَهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ . قَالَ أَجْئَنَا لِتَخْرُجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسَاحِرِكَ يَا مُوسَىٰ ، فَلَنَأْتِنَّكَ بِسَاحِرٍ مُّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَا وَبَيْنَكَ مُوعِدًا لَا نَخْلُفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوَىٰ﴾ [طه: ٥٦ - ٥٨].

هذا هو موقف فرعون، اتهام موسى بالسحر. ولكن هذا الرأي ينبغي أن يقول به الملاً من قوم فرعون رجال القصر وأعمدة الحكم من كبراء أمراء وزراء وأعوان. حتى يكون رأي الأغلبية يقولون كما يقول، ويرون كما يرى. قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فَرَعْوَنَ إِنْ هَذَا لِسَاحِرٌ عَلِيمٌ ، يَرِيدُ أَنْ يَخْرُجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الاعراف: ١٠٩، ١١٠].

يبدو أن فرعون قد تظاهر بالديمقراطية، ولكن هذه الديمقراطية تمثيلية مزيفة، لأنه أوحى لها بالموقف والرأي، تأمل قوله في الآية: ي يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرؤن؟

أصبح فرعون مأمورةً وغيره آمراً. فهو يستشيرهم ليعمل برأيهم. ورأيهم بزعمه يكون أمراً له! فماذا كان الموقف؟

﴿قَالُوا : أَرْجِهِ وَأَخْاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، يَأْتُوكُ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الاعراف: ١١١، ١١٢].

تأمل موقفهم هو نفس موقف فرعون الذي أعلنه من تكذيب موسى واتهامه بالسحر، ورأيهم هو نفس رأي فرعون وهو إجراء مبارزة بين السحرة وموسى عليه السلام.

هذه هي ديمقراطية فرعون؟

مسرحية ما بعدها مسرحية!

لكنها مسرحية مكتشوفة لا تنطلي على أحد، ولا يخدع بها أحد.

إن الطواغيت وهم يتسلطون على رقاب الناس – سواء كانوا فراعنة الماضي أو فراعنة الحاضر أو فراعنة المستقبل – ويحكمون الناس بالحديد والنار، ويستبدون بالأمر، ويقهرون الشعوب، ومع هذا يدعون الديمقراطية وينادون بالحرية، والرأي والرأي الآخر. وهم يضيقون ذرعاً بسماع كلمة معارضة أو دعوة اصلاح وتغيير وتحريير.

فرعون الذي يقول بصرامة وصلف: **﴿مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرُّشاد﴾** [غافر: ٢٩]، يقف اليوم متظاهراً بالديمقراطية، وطالباً رأي غيره، واعتبار رأي غيره أمراً له!.

إننا ينبغي أن نشفق على أنفسنا وعلى غيرنا، ونحذر أشد الخدر من أناس في المنطقة العربية والعالم الإسلامي ينادون بالديمقراطية ويدعون إليها ويفاخرون بها ويعتزون بالأحرار والحرية، وهم في الحقيقة فراعنة لا يقيمون وزناً لقرار أمة أو لإرادة شعب. وإنما واقع حالهم يقول: **﴿مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرُّشاد﴾** [غافر: ٢٩].

لقد عاش الناس أياماً وسنين في المنطقة العربية ورأوا وسمعوا من يدعون إلى اعتبار اليهود العدو الأول للعرب والمسلمين لأنهم اغتصبوا فلسطين، والمسجد الأقصى وأنه لا بدّ أن يقاتلوا بكل شيء لأن هذه هي إرادة الشعب. ثم ينقلبون انقلاباً كلياً، ويتغيرون تغييراً جذرياً، وينعكسون انعكاساً كلياً، وإذا بأعدائنا يجب

أن يكونوا أصدقائنا، وأن من يرميهم بحجر يرمي نفسه في غياهب السجون، وينكل به أشد تنكيل، لأن هذا يزعمهم هو رأي الشعب وإرادة الأمة.

وما يجدر ذكره أن جميع وسائل الاعلام وأغلبية رجال الاعلام يجب أن تدور بفلق المسؤولين فتبرر لهم هذا التغير، وتخرج لهم هذه التصرفات. وأن الشعب بأغلبيته الساحقة معهم يقول بقولهم في العداء والبراء من اليهود سابقاً، والولاء لليهود لاحقاً، والعداء والبراء من كل من يرى طريق الجهاد هي طريق التحرير وإعادة الأرض المغصوبة.

اننا يجب أن نحذر خديعة الفراعنة قديماً وحديثاً في مسرحية الديمقراطية وسراب الديمقراطية الخادع الذي يحسبه الظمان المخدوع ماء، ويركض وراءه ركض الذي إن تحمل عليه يلها، أو تتركه يلها فلا يجد شيئاً ثم يموت عطشاً إذا لم تتداركه عنابة الله.

نسألك اللهم أن تدرك المسلمين بعنایتك ورعايتک وأن تبصرهم بحقيقة أعدائهم وحقيقة الفراعنة وأن تمن عليهم بالنصر والتمكين.

المقالة الرابعة عشرة

كيد فرعون في ثبيت حكمه

ذكرنا في حلقة سابقة أن فرعون ركب رأسه وأصر على موقفه من العلو والاستكبار أمام معجزة العصا التي تنقلب أفعى بإذن الله. وأمام اليد التي تخرج بيضاء تتلألأً من تحت إبطه بقدرة الله وإرادته. واتفق هذا وزبانيته وأركان حكمه وسدنته أن معجزة موسى - عليه السلام - مجرد سحر، وفي ملكته سحرة كثيرون، ينبغي أن يحشدو المبارزة موسى عليه السلام.

لقد أرسل فرعون إلى جميع السحرة في ملكته فجاءوا، ووعدهم فرعون ومناهم إن هم تغلبوا على موسى - عليه السلام - بمكافأتهم مكافآت جزلة وأن يقربهم منه. ويعطيهم الأوسمة والنياشين تكريماً لهم على ما بذلوه من جهود وما حققوه من نتائج تخدم العرش الفرعوني وتثبت أركانه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرِينَا آيَاتِنَا كُلُّهَا فَكَذَّبُوا إِنَّمَا يُكَذِّبُونَ مَوْعِدَنَا لَمْ يَرَوْا وَإِنَّمَا يُكَذِّبُونَ مَوْعِدَنَا لَمْ يَرَوْا وَأَبَىٰ قَالَ أَجِئْنَا لَتَخْرُجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسُحْرِكَ يَا مُوسَىٰ فَلَنَأْتِنَّكَ بِسُحْرِ مُثْلِهِ فَاجْعَلْنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نَخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوْيًاٰ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّيَادَةِ وَأَنْ يَحْشُرَ النَّاسَ ضَحْنًا فَتَوَلَّ فَرَعُونَ فَجَمَعَ كِيدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه: ٥٦ - ٦٠].

ولما جاء السحرة طلبوا من فرعون الطاغية أن ينعم عليهم بالأجر الجليل، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحْرَةُ فَرَعُونَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لِأَجْرٍ إِنَّ كَنَّا نَحْنُ الْغَالِبُونَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمْ تَكُونُوا مُقْرِبِينَ﴾ [الاعراف: ١١٣، ١١٤] وهذه الآيات تشعر أن فرعون الطاغية كان يسخر الناس لخدمته وثبتت أركان حكمه دون أجر ودون مكافأة، ولهذا تجرا السحرة هنا فطلبوا الأجر وقد ألغوا السخرة منه فأجابهم بأنه سيعطيهم الأجر، ويزيدهم فوق الأجر، وتعيينهم في وظائف الدولة الحساسة والمراتب العالية. ويغدق عليهم من المال والغذاء والكساء الفرعوني ما يسيل له لعاب الطالبين لهذه الأشياء.

وهنا نتوقف لنستبط درساً مهماً وهو أن فرعون سخر السحرة للوقوف في وجه الحق ودعوة الحق في مقابل لعاعات الدنيا.

وفراعنة القرن العشرين يسلكون هذه الوسيلة الفرعونية المتخلفة في ترسیخ أركان حكمهم، والمحافظة على امتيازاتهم ومصالحهم التي اغتصبواها في غفلة من الجماهير. فيشترون ضعاف النفوس بعرض زائل من عروض الدنيا الزائلة، ويسيرونهم في مقابل ذلك للتصدى للحق وحملة الحق ولو أدى ذلك إلى خزيهم وذلهم وانكسارهم.

أقول: كم من الناس من حملهم حرصهم على المال والجاه والسلطان أن يتنازل عن قيمه، وأن ينسليخ من كرامته، وأن يكون مسماراً في بسطار طاغوت من طواغيت الأرض وفرعون من فراعنتها. ثم يلفظ بعد ذلك لفظ النواة، لأنه أدى مهمته، وجاء دور غيره من العملاء ليقوم بدور آخر.

أخي القارئ الكريم: أرجو أن أهمس في أذنك أن تحذر كل الحذر، وتخشى أشد الخشية من أن يسيرك هواك. وأن تسول لك نفسك بأنك لن تصل إلى ما تصبو إليه من مال أو منصب أو سلطان إلا إذا بعت نفسك لغير الله بأتفه الأثمان، ولو كانت الدنيا فإن الدنيا لا تصلح أن تكون ثمنك وثمن نفسك. وإنما هي الحياة الحالدة في نعيم مقيم، وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين اعززوا بالله، واستمسكوا بكتاب الله وغضروا بتواجدهم على دعوة الله، يبذلون المال والنفس والنفيس في سبيل هذه المنزلة السامقة.

ولله در الشاعر حين قال محذراً من مغبة الحرص على الدنيا واعتبارها أو اعتبار مناصبها أو نعيمها ثمناً لنفسه:

إذا ذهبتي نفسك بدنيا أصيبيها فقد ذهبت نفسك وقد ذهب الثمن

أخي القارئ الحبيب: نجاني الله وإياك من كيد الفراعنة وأغراءات الفراعنة وأغواءات الفراعنة، وهداياهم فإنها السم الزعاف، وثبتنا جميعاً على دعوته ورزقنا جنته واكرمنا بكرمه وأجزل لنا المثلوية فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

المقالة الخامسة عشرة

التوكل على الله من أهم عوامل النصر على الطواغيت

لقد اجتمع السحراء وهم في غاية الحماسة، حتى ينالوا الأجر الفرعوني والمكافأة الفرعونية سواء كانت مالاً وفيراً وعطاءً جزلاً، أو الإنعام بالأوسمة والياشين، أو تعينهم في أرقى مناصب الدولة الفرعونية من إماراة، أو وزارة، أو قيادة، أو سلطان، أو زعامة.

والتقوا موسى - عليه السلام - وفرعون وهامان وقارون والملاك الكفرة من قوم فرعون يرقبون النتيجة، وهي نتيجة في غاية الأهمية بالنسبة لهم ولفرعون. فإنما أن يترسخ أركان حكم فرعون في البلاد، وأن يتزلزل هذا الحكم الفرعوني إن تغلب موسى عليهم، ولم يكن يخطر ببال فرعون غير هذه النتيجة. وكان حريصاً كل الحرص على أن يهزم السحرة موسى عليه السلام.

لقد بدأ التحدي من السحرة. وهذا التحدي يشعر أنهم على ثقة بالنصر والغلبة، وأن المكافأة الفرعونية تنتظرونها. فهم على آخر من الجمر في الأمر، وهم حريصون على أن يحسموا الأمر بأقصى سرعة ممكنة. فماذا كان موقف موسى عليه السلام؟

لقد واجه موسى - عليه السلام - التحدي بالتحدي. وزاد على ذلك بحرب نفسية شنها عليهم وأنهم المغلوبون لا محالة. فقال دون مبالغة لتحديهم وقد عرضوا عليه إما أن يلقى هو عصاه أو أن يلقوا هم عصيهم. سيان من البدائي فالنتيجة في ظلهم محسومة لصالحهم لكثرتهم ولاعتمادهم على فرعون وقوته. قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَا أَن تَلْقَى وَإِمَا أَن نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِين﴾ [الاعراف: ١١٥] وفي سورة أخرى ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَا أَن تَلْقَى وَإِمَا أَن نَكُونَ أُولَئِنَّا، قَالَ بَلْ أَنْتُمُ الْقَوَافِل﴾ [طه: ٦٥، ٦٦].

لقد أجابهم موسى – عليه السلام – متحدياً أن يكونوا المتقدمين عليه بالقاء ما يريدون القاءه غير مبال بهم ولا هائب لما جاءوا به.

لقد سارع السحرة في القاء حبالهم وعصيهم وأقسموا أنهم الغالبون، نعم إنهم أقسموا بعزة فرعون الطاغية، الذي تأله عليهم وادعى الربوبية، وقتل الأطفال وسفك دماء الرجال وأحيى النساء بلا أزواج بعد قتالهم. تأمل قوله تعالى: ﴿فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصَيْهِمْ وَقَالُوا بَعْزَةُ فَرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] تأمل الفاء في كلمة (فَأَلْقُوا) فإنها تفيد التعقيب مع الفورية، فإنهم ألقوا ما ألقوا بسرعة فائقة دون تدبر أو رؤية فالعاطفة والهوى تسيرانهم وما علمواحقيقة الأمر، وتصريف الرب وقدره سبحانه.

إن السحرة اعتمدوا على غير الله وطمعوا فيما عند فرعون واعتزوا به. ولكن موسى عليه السلام يذكرهم أن السحر كفر وفساد، وأن الكفر باطل، وأن الذي سيطر مكر الكافرين وباطلهم وفسادهم هو الله تبارك وتعالى: ﴿مَا جَنَّتْ بِهِ السُّحُورُ إِنَّ اللَّهَ سَيِطِّلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ. وَيَحِقُ اللَّهُ الْحَقُّ بِكُلِّمَاةٍ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٢].

لقد ألقى موسى عصاه بأمر من ربه، فما هي إلا لحظات، وإذا بهذه العصا تنقلب أفعى عظيمة تهتز كأنها جان في قوتها وفي رعبها ومنظرها، فابتلت العصي والحبال، فنظر السحرة وإذا بسحرهم يبطله رب موسى عصا موسى. فما كان منهم إلا أن أيقنوا أن موسى – عليه السلام – وهارون صادقان في دعواهما، وأن فرعون طاغوت من الطواغيت مستكبر كذاب متجرب ليس بإله، وإنما الإله الحق هو إله موسى – عليه السلام –، فما كان منهم إلا أن سجدوا لله رب العالمين معلنين الاذعان والخضوع والتسليم والايمان بالله رب العالمين قال تعالى: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأَلْقَى السُّحُورَ سَاجِدِينَ، قَالُوا آمَنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥ - ٤٨]. إن فعلهم هذا في حقيقته كذب وافتراء ووهم وخیال لا نصیب له من الحقيقة أمام معجزة موسى عليه السلام.

أخي القارئ الكريم: أرأيت كيف تكون نتيجة التوكل على الله؟ أرأيت أثر قدرة الله؟ إن هؤلاء السحرة الذين جاءوا لتشيّط ملك فرعون هم الذين تخلوا عن فرعون وكفروا بألوهيته المزيفة وأعلنوا الإيمان بالله والاستسلام لأمره سبحانه.

إن الدرس الذي نستنبطه في هذا المقام، أن الأنبياء واتباع الأنبياء يملكون الحجج الساطعة والبراهين الدامغة، وأن ما يملكه الطواغيت من وسائل ما هو إلا مجرد خيالات وأوهام يلعبون بعقول السذج من الناس. والطواغيت وعملاؤهم يقفون عاجزين أمام الدعاة لما يملكون من قوة الحق ون الصاعة الحجة.

فأنت أخي الداعية صاحب حق، وحقك أبلج، وصدرك به لا يتجلج. أما الطواغيت واتباعهم فلا يملكون سوى التهويش والخرافات والأوهام، ولن يقفوا في وجه حشك إن تمسكت به وأنت هازمهم لا محالة. كما هزم موسى عليه السلام فرعون من خلال سحرته وإذا هم يعلنون للملأ إيمانهم.

المقالة السادسة عشرة

مفهوم شرعية العمل الإسلامي عند الفراعنة

لقد انتهت المبارزة والمحاورة بغلبة فكرة الحق ودعوة الحق وأهل الحق على الباطل وأهله. وآمن السحرة برب موسى وهارون. وآمن مع موسى غير هؤلاء قليلة من الشباب. قال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ مُوسَى إِلَّا ذرِيْهُ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فَرْعَوْنَ وَمَلَأُهُمْ أَنْ يَقْتَلُهُمْ وَإِنْ فَرْعَوْنَ لَعَالِٰ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمَنِ الْمَسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

فماذا كان موقف فرعون من إيمان السحر؟

لقد حدثنا القرآن عن موقف فرعون في آيات كثيرة في سور متعددة، منها قوله تعالى: ﴿أَمْتَمْ لَهُ قَبْلَ أَذْنِكُمْ لِكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلِمْكُمُ السُّحُورَ فَلَا قُطْعَنْ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلَافٍ وَلَا صَلَبَنَكُمْ فِي جَذْوَ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيْنَا أَشَدُ عَذَابًاً وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

إن التأمل لهذا الموقف الذي حكاه القرآن تتضح له سياسة الفراعنة في الكذب والدليل واتهام الناس زوراً وبهتاناً، وإن كانوا قبل لحظة أو أقل هم أنصاره وسدنه حكمه.

إن هؤلاء الذين جمعهم فرعون من كل مكان ليتعلموا على موسى، ويتصرروا لفرعون ويرسخوا حكمه، وجاءوا راغبين في تحقيق رغبته، وبخاصة عندما وعدهم بالأعطيات والأوسمة والنياشين وتقريرهم، ورفع منازلهم ودرجاتهم في نظامهم الطاغوتى ، وتحدوها موسى وأحاطوا الناس بالرهبة لما أبصروا الحقيقة وأمنوا بالله رب هارون وموسى وأنكرواألوهية فرعون. يفترى فرعون الطاغية بحقهم فرية لا يقدر عليها إلا شيطان، وهي أنهم تلامذة موسى في السحر، وهم الذين تواظوا - بزعم

فرعون الطاغية – مع موسى لإظهار أمره واثبات رسالته وصدق دعوته، وبطلان ألوهية فرعون وهجر عبادته، ومن ثم تشكيك المصريين في ألوهيته وهجرهم له، واتباع موسى – عليه السلام – الداعية إلى التوحيد والتحرير. لقد جاء في تفسير هذه الآية ما يلي:

أراد فرعون بهذا الكلام التلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أن السحرة آمنوا عن بصيرة وظهور حق. قال ابن كثير: «وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل».

ويؤخذ من هذا أن هذا الأسلوب الفرعوني ليس محصوراً في فرعون موسى وإنما يمكن أن يتصرف نفس التصرف الفراعنة في كل زمان ومكان.

إن الذي يلفت النظر أن فرعون غضب وأشتد وأرغى وأزيد، لأن السحرة آمنوا برب هارون وموسى، خرّوا سجداً أمام حقيقة الوحي دون أن يستأذنوه ويتظروا إذنه، فإن أذن لهم آمنوا وصدقوا بصائرهم وأبصارهم، وإن لم يأذن لهم بقوا على عمائمهم وضلالتهم وتاليه فرعون الكافر الفاجر الطاغية.

إن فرعون يشترط للإيمان بالله رخصة رسمية من الحاكم، ومن ثم يشترط لمواصلة الدعوة إلى دين الله وتوحيد رخصة من الحاكم.

إن مما يؤسف له أن نرى في زماننا من ينادي بشرعية العمل الإسلامي، واستعناف الحياة الإسلامية، والعمل لدين الله من خلال قانون بشري بقيود توافق هوى البشر، ويطالب بالالتزام بهذا القانون في إقامة الحجة على الخلق والتبرير بدين الله. إنه نفس منطق فرعون مع السحرة حين آمنوا، إنهم خالفوا رغبة الملك الطاغية فرعون.

إن شرعية العمل لدين الله لا ترتبط برغبة حاكم أو طاغوت أو طاغية إن رضي وأذن، أصبح العمل لدين الله مشروعًا، وإن غضب ونفر ورفض، أصبح العمل لدين الله غير مشروع.

إن اعتناق عقيدة التوحيد والعمل لشريعة الله يستمد شرعيته من الوحي الرباني من القرآن الكريم. وهو ليس مشروعًا فحسب؛ بل هو واجب عيني على كل إنسان، هذا الواجب تكليف رباني ينبغي الامتثال له وطاعته وتنفيذها، ورفض كل ما تعارض مع هذا الواجب فإنه لا طاعة مخلوق في معصية الخالق.

ومن هذا المنطلق الطاغوتى وجدنا في بلاد المسلمين من يبيع العمل السياسي لكل علماني وملحد وكافر بالله ورسوله، ويحظر العمل السياسي على المؤمنين بالله الموحدين به العاملين لتطبيق شريعة الله في الأرض. لأن القانون الطاغوتى قام على ابعاد دين الله عن الحياة، وحذر على اتباع الدين الإسلامي أن يعملوا على أساس عقدي وإيماني وديني.

لقد تعلم هؤلاء جمیعاً من فرعون الطاغية، ونادوا بما نادى، وزادوا على ذلك بأنه لا دخل للدين في السياسة، ولا سياسة في الدين، مع أن الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ قد بلغا وبيناً أن لا خير في دين لا سياسة فيه، ولا خير في سياسة لا دين لها، بل إن السياسة التي لا دين لها هي سياسة كافرة، والسياسة التي لها دين هي السياسة الشرعية، لأن السياسة الشرعية تعني حمل الناس على مقتضى النظر الشرعي.

المقالة السابعة عشرة

الطاغية يتهدد ويتوعّد

لما أُعلن السحرة أيّاً منهم بالله تبارك وتعالى، وخرعوا سجداً له أنكرا عليهم الطاغوت الطاغية فرعون وتهدهدهم وتوعدهم. وأُعلن أنه سينكل بهم تنكيلًا شديداً، وبين صورة هذا التنكيل بأنه لن يكتفي بالقتل، وإنما سيتمثل بهم ويشوههم ويعذبهم تعذيباً شديداً ينتهي إلى الموت. إنه أُعلن أنه سيقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى، حتى لا يكونوا قادرين على الحركة والهروب والكسب والسعى، فيموتونا صبراً بعد أن يقاوموا هذه الآلام. ويُكابدوا هذه المتابع، وسيعلقهم في جنوح النخل ليرهب بقية الشعب المستضعف، فإنه حين يرى هؤلاء المستضعفون، أنّ الذين آمنوا بالله ربّا وترکوا ألوهية فرعون الزائفة، قد قطع فرعون أيديهم وأرجلهم من خلافِه، وصلبهم على جنوح النخل، لأنّهم وحدوا الله وعبدوه، سيثنيهم ذلك وينعهم من سلوك طريق الإيمان واتباع السحرة في الإيمان والتوحيد.

إن الذي يتأمل الآيات القرآنية التي قصت لنا قصة المبارزة والمحوار، أن الناس اجتمعوا يوم الزينة ليحددوا موقفهم بعد نتيجة المبارزة وهي اتباع الغالب تأمل قوله تعالى: ﴿وَقَيْلَ لِلنَّاسِ هُلْ أَنْتُمْ مُجَتَّمِعُونَ، لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْفَالِيْنَ﴾ [الشعراء: ٤٠، ٣٩].

لقد وقعت المبارزة فكان السحرة مؤمنين قد آمنوا برب موسى وهارون، والذي أفرغ فرعون أن يقلد الناس المجتمعون السحرة فيؤمنوا برب موسى وهارون، ويتحررروا من ظلم فرعون وجبروت فرعون. ولهذا وقف كالجنون غاضباً مزاجراً متهمًا السحرة بالتواطؤ مع موسى ضده، ومهدداً السحرة الذين آمنوا بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبيهم في جنوح النخل، وكان يقصد إلى أمرتين الأولى ثني السحرة عن الإيمان. وكف الناس كذلك عن الإيمان، وإنما سينكل بالجميع بالسحرة وبكل من سلك طريقهم.

وهذا الأسلوب المتخلل المتواحش الذي يتصادر الحريات ويقهر النفوس، لا زال في عالمنا المعاصر يستخدمه الطواغيت والفراعنة مع كل من يخالفهم في الرأي. وينتقد مواقفهم، ويرفض سلوكهم الفاسد المفسد. ويتأكد هذا الأسلوب ويمارس بأبشع صوره مع الدعاء إلى الله إن أعلنا أنهم يدعون إلى الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة، ويريدون أن ينقل إلى الواقع الحياتي للناس من خلال دولة إسلامية تسوس الناس بالعدل وتربيتهم على التقوى، وتثبت فيهم روح الجهاد والاستشهاد.

إن الطواغيت الفراعنة في القرن العشرين يمارسون هذه السياسة ويتصرفون هذا التصرف من منطق المحافظة على أنفسهم وعلى أنظمتهم المتخلفة وعلى مصالحهم وأمتيازاتهم باسم القوانين التي يشرعونها، وباسم العدالة التي يتوهمنها ويوهمنون الناس بها، وما هي إلا مجرد خداع وتضليل.

لقد عجز فرعون أمام السحرة في الدفاع عن ألوهيته، والدفاع عن ظلمه وبطشه وغطرسته. وعجز أن يبني السحرة عما هم فيه من الحق. فكان التهديد والوعيد بالقتل والصلب.

ونستنبط من هذا درساً في غاية الأهمية أن الطواغيت لا يملكون مجرد دليل أو شبه دليل على ما يدعونه من باطل. ولهذا فهم مهزومون أمام الدعاء في مجال الحاج العقلي وال الحوار العلمي السليم، ولهذا نجدهم يلجأون إلى قوتهم وجبروتهم وسلطانهم ويستخدمون ما لديهم من جلاودة وجند للبطش بالمتورين من شعوبهم، وسفك دماء الدعاة والمصلحين، فهل يؤثر هذا البطش والتهديد في نفوس الدعاة؟

المقالة الثامنة عشرة

الإيمان يحرر أصحابه من الخوف

ذكرنا في مقالة سابقة أن فرعون الطاغية قد فوجئ بإسلام السحرة وتوحيدهم وسجودهم لله رب العالمين، وأسلامهم لله رب العالمين، فجن جنونه، فقد عقله، فأخذ يتهجد ويتوعد المؤمنين. فهل استجاب هؤلاء لتهديده، وهل خافوا من وعيده، وهل تراجعوا عن إيمانهم؟

إن القرآن الكريم ذكر لنا في أكثر من سورة ثباتهم على مبدأهم واستعدادهم أن يتحملوا القتل والصلب في جذوع النخل. فهذه الحياة الدنيوية لا تساوي عندهم شيئاً بالنسبة للدار الآخرة، والنعيم المقيم. قال تعالى: ﴿قَالُوا لَن نُؤْثِرَكُمْ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السُّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾. [سورة طه ٧٢، ٧٣].

وفي سورة الشعراء: ﴿قَالُوا لَا ضِيرٌ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كَنَا أُولَئِنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠، ٥١].

إنه موقف يستحق الإعجاب والتقدير، وتحول يستحق التدبر والتفكير، تحول حدث في لحظة أو هنيهة لا تعدل في مدتها غفلة عين وانتباها، ولكن الله تبارك وتعالى غير الأمور والآنفوس من حالة إلى حالة، وحولها من نفوس كافرة فاجرة إلى نفوس مؤمنة عفيفة صابرة، حولها من نفوس متعلقة بالدنيا وطواحيتها، ولعاعة الدنيا التي يملكونها الطواحيت وتمناها السحر ووعدوا بها، إلى نفوس زهدت في الدنيا واستعدبت مفارقتها. واختارت أقسى طريق في المفارقة، إنه تحمل القتل وسفك الدماء.

إنه التحول والثبات على الهدایة والحق، وعدم تقديم المنفعة الطارئة على

المصلحة الباقيه والنعيم الزائل على النعيم الدائم في الجنة. جنة يغمض فيها الرجل من أشقي أهل الدنيا فيقال له: هل ذقت بؤساً قط فيقول: لا والله يا رب ما ذقت بؤساً قط، ويؤتى بأنعم رجل في الدنيا وأترف رجل، فيغمس في النار غمضة واحدة فتنسيه كل لذائذ الدنيا ومتاعها وشهواتها الباطلة فيقول إجابة على سؤال سائل هل ذقت نعيمًا قط: لا والله يا رب ما ذقت نعيمًا قط. انهم عقلاً أدر كانوا طريق الجنة، طريق الثبات، وتحمل الأذى، طريق الأشواك. طريق مملوء بالآلام والعذابات ولكنه الطريق الوحيد للجنة، أخبر به رسول الله ﷺ حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات.

لقد أملى الظرف على السحرة أن يختاروا موقفاً، وهذا الموقف ولا شك موقف صعب يتطلب الحياة الدنيا، يتطلب سفك الدماء.

وإن الرجولة المنبثقة عن الإيمان والتوحيد تقتضي من صاحبها أن يقف بجانب ما اختار، وأن يتحمل المسؤولية كاملة نتيجة هذا الاختيار، وهكذا كان. لقد ثبتوا وتحدوا ولم يتراجعوا وقالوا: فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا.

أيها الطاغوت الطاغية لن نفضلك على الهدى والإيمان الذي جاءنا من الله على يد موسى ولو كان في ذلك هلاكاً ونؤكداً لهذا الموقف بقسم بالله ربنا.

والذي أريد أن ألفت نظر القارئ الكريم: أنهم قبل هدايتهم وحينما كانوا سحرة لفرعون كانوا يقسمون بعزة فرعون. يا له من تقدير وتغيير. إن هؤلاء الذين ألقوا بحالهم وعصيهم قد أقسموا بعزة فرعون إنهم لغالبون نجدهم أنفسهم يرفضون الوهية فرعون، ويقسمون برب موسى وهارون، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي فَطَرْنَا﴾ إنه قسم بالذي خلقهم وهدتهم وهو الله تبارك وتعالى.

أخي القارئ الكريم: أرجو أن ألفت نظرك إلى أمور في هذا الدرس أو المقالة: أن المبادئ لا يحملها إلا الرجال الصابرون الثابتون. وأنه لا تهزم أعداءها إلا حين يعتنقها أنصار يضعون في سبيلها بالنفس والنفيس.

وأنت أخي المسلم مدعو في كل لحظة إلى أن تنصر دين الله وتؤثر دعوة الله على غيرها من الدعوات الأرضية، وأن تعمل جاهداً لإسقاط هذه الدعوات الأرضية، والافكار الوثنية والاصنام البشرية والحجرية، وأن تهبيء نفسك وتصبرها على لأواء الطريق وعسرها وحرها ومرها.

المقالة التاسعة عشرة

تركية النفس ثمرتها الجنة

لقد وقف السحرة الذين آمنوا موقف الثبات والتحدي لفرعون وبطش فرعون، وأثروا رضا الله على رضا فرعون، وتبرأوا من سحرهم الذي كانوا يستهدفون منه خدمة النظام الفرعوني، وابطال نبوة موسى وصدقه. وتعليق رسالته في تحرير الشعب المصري المستضعف المقهور المسخر لخدمة فرعون وزرائه وكبراء قومه.

وأعلنوا أنهم يستخفون بغضب فرعون ولا يأبهون له ولا يقيمون له وزناً في مقابل رضا الله وتجنب سخطه. وأعلنوا أيضاً أن عذاب الفرعون المصري في عهد موسى لا يقارن بعذاب الله. وهذا رد على تهديد فرعون بعذابه حين قال لهم بعد أن هدد بصلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيْنَا أَشَدُ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١] فقالوا له: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣] أي والله خير منك ثواباً وأبقى عذاباً، ثواب الله دائم لا ينقطع، وعذاب الله دائم ما دامت السموات والأرض، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقَوْا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ، خَالِدُونَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَلٌّ لَمْ يُرِيدْ. وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدُونَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُوذٍ﴾ [هود: ٦ - ١٠٨].

ولقد فصلت سورة طه ذلك وأكملته فجاء فيها: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مَجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَعْوَذُ فِيهَا وَلَا يَحْسِنُ. وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكُمْ لَهُمُ الْدَّرَجَاتُ الْعُلَى، جَنَّاتٌ عَدِينٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدُونَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مِنْ تَرْكِي﴾ [طه: ٧٤ - ٧٦].

يا لها من جنة تجري من تحت غرفها الأنهر، وتجري من تحت سررها الأنهر،

وأنهار أي أنهار! أنهار من خمرة لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وأنهار من لبن سائغ للشاربين، وأنهار من ماء زلال تتفجر من جبل من مسك. ولهم فيها من كل الشمرات ومحفورة من ربهم. ونعود بالله من نار يسكنى أهلها ماءً فيقطع أمعاءهم.

إن هذا النعيم لمن زكي نفسه كما قال تعالى: **(فَوْذِلَكَ جَزَاءُ مَنْ تَرَكَى)** والزكاة النمو والطهارة والتربية، ومن ذلك زكا الزرع نما وكبر، ومحمد زكي العرض ظاهره.

وهذا درس للأخ القارئ الكريم، ينبغي أن يغض عليه بالتوارد ولا يغفل عنه، وأن يسعى جاهداً ليل نهار لتركيئة نفسه وطهارة قلبه، والإقبال على الطاعات والإكتثار منها والكف عن المعاصي والهروب منها، ومن تركيئة النفس: حملها على تعلم الحق والعمل بالحق ونشر الحق. والصبر على حمل الحق وما يتبع عن ذلك من عنت ومشقة. ومن التركيبة: جهاد الشيطان والخذر من اغرائه وزحلقته بإثارة الشهوات والولوغ في المحرمات. وجihad الشيطان والخذر من اغواهه بغير التشکك والشك، فيفسد إيمانه ويعود إلى الكفر بعد أن هداه الله. ومن التركيبة: جهاد الظالمين باليد واللسان والقلب، وجهاد الكافرين بالنفس والمال واللسان هذا هو طريق الجنة، طريق التركيبة للنفس.

أخي القارئ الكريم: أنتا في هذه الأنظمة الجاهلية التي تحكم بغير الاسلام. وتشريع للناس ما لم يأذن به الله ولا رسوله ولا صالح المؤمنين. وتضع قيماً جاهلية للناس فيسائر علاقاتهم وفي أخص خصوصياتهم. إننا بحاجة إلى تركيبة نقوسنا وتربيتها على المعاني الاسلامية، والقيم الایمانية، ومجاهدة هذه النفوس، ومجاهدة شياطين الانس والجبن، ومجاهدة الظالمين والكافرين، حتى تكون من الناجين الذين طهروا قلوبهم ونفوسهم، وربوها على تقوى الله والرغبة في ثوابه، والرهبة من عقوبته، والحرص على النظر إلى وجهه الكريم. فيكون لنا جراء من ترزي.

المقالة العشرون

مؤمن آل فرعون يستذكر التآمر على حياة موسى

لقد قدم موسى - عليه السلام - الآيات الدالة على نبوته ورسالته إلى فرعون وأعمدة الحكم عنده. ولكنه أصر على كفره وظلمه، وأخذ يتهدد موسى ويتوعده بالقتل بأسلوب خبيث ذكره القرآن في قوله: ﴿وَقَالَ فَرْعَوْنَ ذُرْنِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلَيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَبْدِلْ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يَظْهُرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ﴾ [غافر: ٢٦] فالمتذمِّر لهذه الآية يلاحظ كأنَّ أَنَاً يعارضون في قتل موسى - عليه السلام - وفرعون يريد قتله ولهاذا فهو يتطلب منهم أن يترکوه لينفذ جريمته، وأنه لن يقف أحد في وجهه لقتل موسى، وامعاً في الكفر قال: وليدع ربَّه، أي ليناد ربَّه يخلصه مني.

وانما قال ذلك على سبيل الاستهزاء، وكأنَّه يقول: لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى، وغرض فرعون أن يوهّمهم بأنه إنما امتنع عن قتله فيما مضى من أيام رعاية لقلوب أصحابه وسدنته وسدنة عرشه. قال أبو حيyan: «والظاهر أن فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنهنبي، وأن ما جاء به آيات باهرة. وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خبث وجبروت وكان قتالاً سفاكاً للدماء لأهون شيء، فيكيف لا يقتل من أحسن منه بأنه يسلِّ عرشه، ويهدِّم ملكه؟ ولكنه يخاف إن هم بقتله أن يتعجل بالهلاك، وكان كلامه للتمويه على قومه، وايهامهم أنهم هم الذين يكفونه. وما كان يكتفِه إلا شدة الخوف والجزع».

ويلاحظ أنه لما أعلن فرعون أنه يريد قتل موسى طالباً ألا يقفوا في وجهه وينعوه من قتل موسى - عليه السلام - وقف رجل من جماعة فرعون وحزبه. قد آمن سراً. واتبع موسى - عليه السلام - يستذكر قتل موسى، ويتأكد هذا الانكار حين يكون السبب هو إيمان موسى وتصميمه على نشر عقيدة التوحيد والتحرير. ونبذ كل عقائد

الشرك ومظاهر الشرك والفساد قال: ﴿أَتَقْتَلُونَ رِجَالًا أَنْ يَقُولُوا رَبُّهُمْ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] فهو تبكيت عليهم. فليس له جريمة سوى أنه آمن بالله تعالى، ووحده ودعا إلى توحيده وعبادته. وهو لم يقل شيئاً من عنده، بل هو مرسى من ربها وقامت الحجج الدامغة والبراهين الساطعة على ذلك. ولم تحرروا جواباً وأنتم تشهدون هذه الحجج.

واستمر مؤمن آل فرعون يحاورهم في رسالة موسى التي آمن بها، وصدق موسى عليه السلام بآيمانه به وبرسالته. لقيام الأدلة النقلية والعقلية الدالة على رسالته، وعلى سبيل التنزل في مقام الخصم ومحاورته قال: ﴿إِنْ يُكُفَّرْ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبَهُ وَإِنْ يُكُفَّرْ صَادِقًا يُصِبُّكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعْدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]. قال القرطبي رحمة الله: «لم يكن ذلك الشك منه في رسالته وصادقه. ولكن تلطفاً في الاستكافف واستئزالاً عن الأذى». ومعنى قول القرطبي أنه أراد من فرعون أن يكف عن قتل موسى وترك أذاه.

أخي القارئ الكريم:

ألا يعجبك موقف مؤمن آل فرعون الذي آمن سراً ولم يعلم بآيمانه أحد، لما شعر بخطورة الجريمة التي أراد اقترافها فرعون وقومه – وهي قتل موسى – لم يطأوهه إيمانه أن يسكت عنها، بل انبرى يتصدى لهم منكراً عليهم فعلتهم القبيحة هذه. **أَتَقْتَلُونَ رِجَالًا أَنْ يَقُولُوا رَبُّهُمْ اللَّهُ؟**

هذا درس في غاية الأهمية يجب أن يتوقف كل مسلم عنده، درس نصرة المؤمنين إذا نيل من أعراضهم أو دمائهم، نصرة المؤمنين إذا تعرضوا لمؤامرات أعداء الله وأعداء رسوله.

إنه ينبغي على كل مسلم إذا جلس مجلساً وسمع فيه ما يؤذى الدعوة أن يقف كما وقف مؤمن آل فرعون يدافع عن الدعوة. ويخذل عنهم، ويدفع الأذى عنهم.

أخي القارئ الكريم: إن المجالس كثيرة لأهل الباطل. نعم هي كثيرة التي يكاد فيها للمسلمين، ويخطط فيها لتشويه سمعة الدعوة المسلمين، سواء كان ذلك

بالحملات الاعلامية الظالمة، أو الإشاعات المفتراء، أو التواطؤ على إلحاق الأذى بهم، والتأمر على تصفيتهم، فالواجب الشرعي عليك أن تقف بجانب الدعاة، ويحرم عليك أن تسكت في مجالس المنكر هذه، وإن سكت فهو الخذلان الحرم قال عليه السلام: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه». لا يسلمه لاعتداء المعذبين وإيذاء المؤذين هذا هو مؤمن آل فرعون أرضى ربه بالوقوف بجانب موسى – عليه السلام – فلم يسلمه بل نصره ودافع عنه.

المقالة الحادية والعشرون يستحسن التلطيف في الخطاب الدعوي

لقد وقف الرجل المؤمن من آل فرعون ينكر على آل فرعون والملا من قوم فرعون قرارهم تصفية موسى - عليه السلام - وقتله. وفي هذه المقالة نرى أن هذا الرجل لم يقف منكراً فحسب؛ بل وقف محاوراً ومناظراً ومحدراً من مغبة الاستمرار في طريق الضلال والغواية وتاليه غير الله تبارك وتعالى. قال تعالى: **﴿هُيَا قَوْمٌ لِّكُمْ الْكِبَرُ يَوْمًا ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فَرَعُونَ مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلُ الرِّشادِ﴾** [غافر: ٢٩].

لقد خاطبهم الرجل الداعية بأسلوب لين رقيق في بداية الأمر، لعل قلوبهم تلين ولعل عقولهم تبصر وترى الحقيقة. ولعل عيونهم تصحو من غفوتها أو ترى من غشاها عن الحق. كان الأسلوب في المخاطبة: (يا قوم). إنه يشعرهم بهذا الخطاب الحريص على مصلحتهم، هذا الخطاب الشفيف الرقيق الرحيم بهم. يا قوم أنتم مني وأنا منكم. يوذيقكم ما يؤذيني ويسركم ما يسرني، ويسعدني ما يسعدكم، ويؤلمني ما يؤلمكم، فمسيرنا والذي أرجوه واحد. فاقتحوا عقولكم وأبصاركم وقلوبكم لما أقول.

لقد أخذ يذكرهم بنعم الله عليهم، وأول نعمة هي نعمة الملك. نعمة الحكم، حكم الناس والسيادة عليهم، ولكنهم لم يقدروا هذه النعمة ويشكروها، بإقامة العدل في الناس ودفع الظلم عنها، بل حكموا الناس بالقهر والاستبعاد وسخروهم لصالحهم الذاتية. ومن هذه السياسة القهقرية قتل موسى - عليه السلام - لا لجريمة ارتكبها، وإنما لأنه يقول ربي الله. ونلاحظ أنه عرض الأمر عرضاً لا يوحى بالتحيز حتى يكون مؤثراً في هؤلاء القوم الذين لا يكادون يفهون حدثاً. لقد سلك هذا الأسلوب ابتداءً، طمعاً ورغاءً، أن يقبلوا قوله وأن يستجيبوا لندائه فيتوقفوا عن ظلم المستضعفين وقتل الأطفال واستحياء النساء.

وأنا نلمس من خطاب هذا الرجل المؤمن من آل فرعون في قوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩] التلطف في المخاطبة وإشعارهم أن مصيره ومصيرهم واحد، تأمل: ينصرنا، جاءنا، قال الفخر الرازي في تفسيره: « وإنما قال: (ينصرنا)، و (جاءنا) لأنَّه كان يظهر لهم أنه منهم. وأنَّ الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه».

لقد حذرتهم من عذاب الله ونقمته إن هم استمروا في تكذيب موسى - عليه السلام - والكيد ضد موسى - عليه السلام - وأنَّ هذا الانتقام سيكون مدمرًا يقضي على سيادتهم وقوتهم ودولتهم في المنطقة.

حقاً لقد كان خطاب الرجل المؤمن من آل فرعون موفقاً، أشعرهم بال媿ة والحرص على مصلحتهم ودفع الأذية عنهم، ومن المنطق العقلي والمصلحي أن يكون مؤثراً فيهم، ولعله كان كذلك، ولقد فطن فرعون الطاغية إلى خطورة كلام الرجل المؤمن عليه وعلى حكمه فمقاطعه وأكَّد موقفه من موسى - عليه السلام - وأنَّه هو الموقف الخازم الصحيح وهو قتل موسى والتخلص منه، فهو في ظن فرعون عامل فتنة وفساد كما جاء في قول فرعون من قبل: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَدْلِلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يَظْهُرَ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ﴾ [غافر: ٢٦].

لقد أظهر فرعون الطاغية بخطابه لهم ومقاطعته لكلام الرجل المؤمن من آل فرعون حقيقته الفرعونية المستبدة التي تصادر عقول الناس وأفهام الناس، وتريد أن تذوب جميع العقول في عقله، وأن تتلاشى الآراء عندما يقول برأي، بل يجعل عليها أن تلغى عقولها وتفكيرها وتهجر أي رأي لها وتقول بقوله وتصناع لأمره، فكل ما يصدر عنه في زعمه هو الحق. فهو مبراً من كل نقص وحال من كل هو، فلا ينطق إلا حقاً ولا يقول إلا صدقأً.

تأمل قوله الذي حكاه القرآن: ﴿قَالَ فَرَعُونَ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلُ الرُّشادِ﴾ [غافر: ٢٩].

فماذا كان موقف الرجل المؤمن؟ هل سلم بما ادعاه فرعون لنفسه كما سلم السدنة لحكمه والمتغرون بما عنده من دنيا ومناصب وسلطان؟

المقالة الثانية والعشرون

خطورة العقيدة على سيادة فرعون الغاشمة الباطلة

لقد أدرك فرعون خطورة الأفكار التي طرحتها مؤمن آل فرعون فقاطع كلامه وأعلن لا رأي إلاّ رأيه، ولا قرار إلاّ قراره وهو قتل موسى - عليه السلام - وتصليب الذين آمنوا معه في جذوع النخل وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وأن الحوار ينبغي أن يحسم لصالح قراره وأن يتوقف عن إبداء غير رأيه وقراره، **﴿قَالَ فَرَعُوْنَ مَا أَرِيْكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلُ الرِّشادِ﴾** [غافر: ٢٩].

فهل استجاب مؤمن آل فرعون لهذا الأمر الفرعوني؟ وهل سكت في موضع الحاجة إلى بيان؟

إن القرآن يخبرنا أنه استمر في الحوار وسرد الحجج الساطعة والبراهين الدامغة على صدق ما يقول. ويتحدى فرعون الذي كان يرى أن يتوقف النقاش، وينتهي الرأي عند رأيه قال تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلُ يَوْمِ الْأَحْزَابِ . مُثْلُ دَأْبِ قَوْمٍ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودٍ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يَرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَبَادِ . وَيَا قَوْمَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُولَوْنَ مُدَبِّرِيْنَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمِنْ يَضْلِلُ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادِيْ﴾** [غافر: ٣٠ - ٣٣].

إن الآيات تدل بوضوح على أن الرجل المؤمن لم يستجب لرغبة فرعون ولم ينصلع لقراره بقتل موسى، والتوقف عن مناقشة القرار الفرعوني الظالم، بل استمر يحذرهم بأسلوب شفيف رحيم. فهم لا زالوا قومه ولا زال حريصاً عليهم، يحب الخير لهم ويكره لهم الشر. فهو خائف عليهم وعلى مصيرهم المؤلم إن هم استمرا في طاعة فرعون وعبادته والسير في ركابه. يذكرهم عصائر الأمم الماضية والأقوام المكذبة للرسل، كقوم نوح الذين أغرقوا بالطوفان بسبب كفرهم. وعاد الذين أرسل الله عليهم الريح العقيم ما

تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم وشود الذين أهلوكوا بزلة دكت منازلهم، وأهلكت حرثهم ونسلهم وجعلتهم أحاديث للناس. وحذرهم أيضاً من أمصار الأقوام الآخرين المكذبين، وأن هذه سنة الله التي لا تختلف ولا تتوقف، سنة الله العادلة. العادلة في عقابها في الدنيا، العادلة في عقابها في الآخرة. فإن الله حرم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محراً. تأمل قوله تعالى: **﴿هُوَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَبَادِ﴾** [غافر: ٣١] واستمر في الحديث بعد أن حذرهم من المصير المحروم في الدنيا، يحذرهم من المصير المشئوم في الآخرة. يحذرهم بأسلوب رفيق رقيق من مغبة كفرهم وصدهم عن سبيل الله، ومؤامراتهم المكشوفة التي تستهدف قتل موسى - عليه السلام - ومن آمن معه.

تأمل قوله: **﴿هُوَ يَا قَوْمٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾**. [غافر: ٣٢].

والتناد هو يوم القيمة. يوم الجزاء العادل، وإدخال أهل الجنة، وأهل النار النار، وسمى يوم التناد لأنَّه ينادي في الخلائق وتظهر عظمة الله وجبروته. ولأنَّه ينادي أهل الجنة بعضهم بعضاً، وينادي أهل النار بعضهم بعضاً، وينادي أهل النار أهل الجنة، وينادي أهل الجنة أهل النار. وينادي أهل النار خازن النار من الملائكة.

والتناد أيضاً مأْخوذ من الفعل ند بمعنى هرب، ومنه ند البعير إذا هاج وتوحش وهو هرب فلا يرده أحد، وسمى يوم القيمة أيضاً يوم التناد؛ لأنَّ الناس يفر بعضهم من بعض، يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ومن في الأرض جميعاً، ويبحثون جميعاً عن النجاة لأنفسهم فقط.

وهذا المعنى يدل عليه بقية الآية تأمل قوله تعالى: **﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تَرَوُنَ مُدَبِّرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يَضْلِلَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾** [غافر: ٣٢، ٣٣].

أخي القارئ الكريم: هذا هو موقف الرجل المؤمن من آل فرعون موقف الثبات على المبدأ وموقف النصرة لأولياء الله، وموقف التحذير من عذاب الله في الدنيا والآخرة، موقف التحدي لفرعون الذي أراد أن يتوقف الناس عند رأيه وقراره: **﴿هُمَا أَرَيْكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرُّشَادِ﴾** [غافر: ٢٩].

وأنت مدعو أخي القارئ الكريم إذا تعرضت لمثل ما تعرض إلية الرجل المؤمن من آل فرعون من طاغية جبار كفرعون، ألا تلين قناتك، وألا تهون عزيمتك، بل تستأنف الحوار، وتقدم الحجة تلو الحجة. وتحاطب الناس وتشعرهم أنك تريد إنقاذهم من هلاك محقق يصيّبهم إذا ساروا خلف الطغاة، كما حدث لفرعون والذين كانوا له اتباعاً وأذناباً، قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرَ فِرْعَوْنَ بِرُشْدٍ يَقْدِمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدُهُمُ النَّارَ وَبَسَّ الْوَرَدَ الْمُوْرُودَ، وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ بَشْرَ الرُّفَدِ الْمَرْفُودِ﴾ [هود: ٩٧ - ٩٩].

فماذا كان موقف فرعون بعد الحوار؟

المقالة الثالثة والعشرون

مراوغة الطاغية فرعون

لقد حذر مؤمن آل فرعون، وفي مقدمتهم الطاغية فرعون، من سوء العاقبة في الدنيا والآخرة، بأسلوب المشفق الحاني عليهم، الناصح الأمين، الذي يحزنه حزنهم و يؤلمه ألمهم. وبخاصة هو، يعرف المصير المحتوم الذي يتظار لهم إن استمروا على ما هم عليه من الكفر والقهر والاستعباد.

وأمام هذا الحاجاج العلمي الذي سلكه الرجل المؤمن بأسلوب موفق تدخل فرعون للمرة الثانية يريد قطع الحوار، وترسيخ الوهية المفتراه المزيفة في قلوب الناس. مشككاً في صدق رسالة موسى - عليه السلام - جاحداً وجود الله الحق، فاطر السموات والأرض. قال تعالى: ﴿وَقَالَ فَرَعْوَنَ يَا هَامَانُ ابْنَ لِي صَرْحًا لِّعَلِي أَبْلَغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَاطْلُعْ إِلَى إِلَهِ مُوسَى إِنِّي لَأَظْنَهُ كَاذِبًا، وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفَرَعْوَنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدُّ عنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فَرَعْوَنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

لقد جاءت هذه الآيات بعد أن أوضح الرجل المؤمن من آل فرعون نتيجة الذي يصر على باطله، ويتجاوز الحد في كفره وضلالة، وغارد إلى الأذقان في الفواحش والمعاصي وظلم الناس. قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْلُّ اللَّهُ مِنْهُ مَرْتَابٌ. الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبَرُ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَهَنَّمٌ﴾ [غافر: ٣٤، ٣٥].

وأنت أخي القارئ تلمس الحزم والتصعيد في أسلوب الرجل المؤمن وبخاصة بحق أولئك المتكبرين وال مجرمين الجباررة الذين لا يفقهون شيئاً، ولا يملكون حجة أو شبهة حجة على باطلهم وعلى ضلالهم، مما يستوجب غضب الله وسخطه ومقته لهم، ويستوجب كذلك كره المؤمنين لهم ومقتهم مقتاً كبيراً، ويستوجب افال

قلبه والختم عليه حتى لا يعقل الرشاد، ولا يقبل الحق. دائمًا وصف القرآن في الآية القلب بالتكبر والجبروت لكونه مركزهما ومنبعهما، وهو سلطان الأعضاء، فمتى فسد فسدت كما أخبر الرسول ﷺ: ألا وإن في الجسد مضيحة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب.

واننا نلاحظ أن هذا الترقي والتتصعيد في الحوار بالشواهد الدامغة لم تؤثر في فرعون وملأه شيئاً. بل أخذ يراوغ ليصرف أنظار الناس وتعقولهم عن المنطق الصواب والحججة الدامغة التي ينطق بها الرجل المؤمن من آل فرعون.

وهنا يعود فرعون إلى المراوغة ومحاولة صرف أسماع الناس عن سماع حوار الرجل الصالح المؤمن من آل فرعون، حتى لا يستجيبوا لهذا النداء المنطقي السليم، وهذا النداء العاطفي المؤثر. فيتأثروا كما تأثر غيره.

لقد قال فرعون لوزيره هامان: «ابن لي قصرًا شاهقاً وبناء شامخاً، لعلي أصل وانتهي إلى طرق السموات وما تؤدي إليها. فانظر إلى إله موسى وأشاهده بأم عيني، ولن أجده إليها سوياً، ولن أجده إلاه الذي يدعوه إليه موسى. وتكون النتيجة التي توصل إليها فرعون، تشكيكاً في الفكرة التي دعا إليها مؤمن آل فرعون. قال أبو حيان: «وبلوغ أسباب السموات غير ممكن لكن فرعون أبزه في صورة الممكן تمويهاً على ساميته. ولما قال: فاطلع إلى إله موسى كان ذلك إقراراً بالإله. فلذلك استدرك هذا الإقرار بقوله: **«وإني لأظنه كاذباً»** [غافر: ٣٧].

وكعادة الطواغيت الحبيبين في ابتداع أسلوب التشكيك بصورة في غاية الدهاء والخبث، أنه لم يقرر ما ادعاه على سبيل الختم والجزم، وإنما ذكر ذلك على سبيل التشكيك ليثير الشكوك عند كل إنسان سمع مؤمن آل فرعون في دعوته إلى الإيمان، وتحذيره من مغبة الكفر والطغيان. وإذا وصل الناس إلى مرحلة التشكيك في وجود الإله الحق، انتهوا إلى حالة فقدان الثقة بكل ما يسمعون. وقد ان الثقة بكل من يتعاملون، وقد ان ثقة الناس بأنفسهم، إنه التشكيك في كل شيء.

لقد أظهر الطاغية فرعون أنه غير مستيقن بوجود الله، وأنه يزعمه في سبيل البحث عن صحة ذلك، وأنه يظن أن لا وجود لله. وسيرى ما هي الحقيقة. كل ذلك ليستخف بعقول قومه ويوهمهم بما يريد.

أخي القارئ الكريم: إن الطغاة الفراعنة في كل زمان ومكان ينهجون هذا الأسلوب في التشكيك بدعاة الحق، وبالحق الذي يحملون، ويعملون جاهدين على تعميق وتعظيم هذا الأسلوب، وهذه القاعدة قاعدة الشك حتى يتركوا الناس إلى اضطراب فلا هم في استقرار ولا هم إلى قرار، ومن ثم يبقى الناس يعيشون حياة العسف والظلم والقهر، ولا يثقون بدعاوة الدعاة ولا يستجيبون لدعوات الاصلاح والتغيير. فلا تغير الأحوال.

المقالة الرابعة والعشرون

مؤمن آل فرعون يدعو إلى رفض ألوهية فرعون

لقد ذكرنا سابقاً أن الطواغيت الفراعنة قديماً وحديثاً، يبتدعون أسلوب التشكيك في البدويات والحقائق العقدية حتى يشيروا عدم الثقة في الناس. ولا يشق جمهورهم بنفسه ولا بغيره من الدعاة المصلحين. فتبقى الأمور على ما هي عليه من الفساد والعنف وسوء الأخلاق. وهذا ما أراد أن ينتهي إليه فرعون موسى ويصرف الناس عن دعوة مؤمن آل فرعون.

إن ما لا شك فيه أن الطاغية فرعون قد زين له الشيطان هذا الأسلوب خادعاً إيه بأنه منتج ومؤثر في نفوس سامعيه، فتمادي في غيه واستمر في طغيانه. إلا أن هذا الأسلوب كانت نتيجته الهلاك والخسران المبين. حقاً إنه مكيدة من فرعون لكنها مكيدة فاشلة وخاسرة أودت به و benign سار في ركباه. قال تعالى: ﴿وَكَذَّلِكَ زَيْنَ لِفَرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدَ فَرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧].

لقد خلص فرعون إلى دعوة المستضعفين المقهورين من أبناء مصر باتباعه والانقياد لأمره ورأيه وانكار ألوهية الله رب العالمين، وتکذیب رسالة موسى عليه السلام.

فماذا كان موقف الرجل المؤمن من آل فرعون؟

لقد صعد التحدي والتتصدي مع فرعون ومع أركان حكمه وأصحاب المصالح والمنتفعين من حكمه وظلمه. ورفض أن يتبع الشعب المصري الطاغية فرعون. بل وقف بكل وضوح يناديهم وبخاطبهم بأسلوب علمي عاطفي، حريص على مصيرهم واسعادهم في الدنيا والآخرة، يخاطبهم بكل صراحة لا تتبعوا فرعون فإنه يدعو إلى النار، ويطالعهم أن يتبعوه فإن في اتباعه انقاذاً لهم من ظلم فرعون ومن

هلاك محقق يجره إليهم فرعون. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمَ اتَّبَعُوكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ [غافر: ٣٨].

فطريق الطاغوت فرعون طريق الغواية، وطريق المؤمن من آل فرعون طريق الهدى السداد والرشاد.

واستمر مصرًا في خطابه بوجوب اتباعه، مبيناً قيمة الدنيا في ميزان الله، وبالنسبة للآخرة، يخاطبهم بأسلوب شقيق رقيق رحيم مشفق على مصيرهم يريد الخير لهم، يا قوم، ويكرر هذه الكلمة في خطابه مشعرًا إياهم بحبه ووده وحرصه على إنقاذهم. قال تعالى: ﴿يَا قَوْمَ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقُرْبَانِ﴾ [غافر: ٣٩].

هذه هي قيمة الدنيا: متاع: كلمة منكرة تفيد أي متاع، فليس متاعاً عظيماً دائمًا وإنما هو متاع قليل زائل مقطوع لا محالة، والحياة الآخرة هي دار الاستقرار والخلود والنعيم المقيم للمؤمنين فمتاعها دائم، وسعادتها أبدية.

وزيادة في ترغيبه في الإيمان واتباع طريقه وهجر طريق الفساد طريق فرعون الطاغية يخبرهم بفضل الله وكرمه في محاسبة خلقه العصاة، ومكافأة الطائعين منهم، أن السيئة يجزي صاحبها بمثلها، وأن السيئة لا تتضاعف. ويخبرهم أن الإيمان والعمل الصالح طريق إلى الجنة. حيث فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكْرِ أُنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

أخي القارئ الكريم: لقد تضمنت هذه أساساً مهماً وركناً من أركان العقيدة، أن شرط قبول الأعمال الصالحة والمكافأة عليها هو الإيمان، وأنه إذا فقد الإيمان عند إنسان فلا ينفعه عمله في الآخرة. وإن تبرع بملايين الدنانير، وأصلاح بين مئات الناس.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرُ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ جُبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]. وهذه الأعمال المدوحة في الدنيا لا وزن لها في الآخرة وإن كانت كالمجبال، قال تعالى: ﴿وَقَدَّمْنَا إِلَيْهِ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مُنَثَّرًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

أخي القارئ الكريم: أرجو ألا تنسى موقف مؤمن آل فرعون في ثباته وتحديه لفرعون، وأرجو أن تقف موقفه من طواغيت الأرض الفراعنة في زمانك، فوق كل أرض وتحت كل سماء، وتكون واضحاً كل الوضوح، قوياً في حجتك، صادعاً بالحق دون تجلج أو تردد. وألا تسكت بعد أن يتكلم الطواغيت حين يعتبرون كلامهم مسك الختام، وإن كان فيه السم الرعاف. وألا تكلّ ولا تملّ من قراء الطواغيت كما أحسست بذلك من مؤمن آل فرعون وحواره وحجاجه لفرعون.

المقالة الخامسة والعشرون ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار؟

لقد حدد مؤمن آل فرعون لقومه طريق الجنة وطريق النار، وأعلن أن دعوة موسى - عليه السلام - التي يتبناها هذا الرجل المؤمن هي طريق النجاة، وأن طريق فرعون طريق الكفر بالله، والتأله على البشر وقهر البشر هي طريق ال�لاك والخسران في الدنيا والآخرة، فهي طريق النار.

لقد حدد نتيجة دعوته ونتيجة دعوة الطاغية فرعون وأزلامه وزرائه وسدنته حكمه. بقوله: **﴿هُوَيَا قومٌ مَّا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاهِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ. تَدْعُونِي لِأَكْفَرُ بِاللَّهِ وَأَشْرَكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ، لَا جُرمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دُعَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرْدُنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمَسْرِفِينَ هُمُ أَصْحَابُ النَّارِ﴾** [غافر: ٤١ - ٤٣].

شتان بين دعاء النار ودعاة الجنة، وشتان بين دعاء النجاة ودعاة ال�لاك، شتان بين دعاء الكفر ودعاة التوحيد. شتان بين دعاء الطواغيت والدعاة إلى العزيز الغفار. إن الدعوة إلى الكفر بالله والشرك به في أي صفة من صفاته، وخصيصة من خصائصه، كادعاء الحاكمة لغيره دون سواه، وسؤال غيره دون سواه، أمر في غاية العجب ويدعو إلى العجب.

وإن الدعوة إلى ربوبية فرعون وألوهية فرعون وهو ليس بالرب ولا بالإله، في مقابلة دعوة التوحيد من مؤمن آل فرعون - دعوة الله الواحد القهار بيده ملکوت كل شيء، وهو على كل شيء قادر، إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون. دعوة العزيز الذي لا يغلب، والواهب القوة والمنعة لغيره، ووليه الذي لا يضام ولا يهزم. دعوة الغفار الذي يغفر ذنوب خلقه، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويعفو عن هفواتهم، ويكرمهم بدخول الجنة - أمر يقضى منه العجب.

إنها دعوة إلى عباده من لا يستحق العبادة. فهو لا يصلح أن يعبد. لأنه لا يستجيب لنداء داعيه. ولا يقدر على تفريج كربته لا في الدنيا ولا في الآخرة. والمرد بعد الممات ليس له، وإنما المرد إلى الله سبحانه، مرد الناس جمِيعاً، كافرهم ومؤمنهم، طائعهم وعاصيهم، وسيجزي كل أنسٍ بما اقترفت أيديهم، إن خيراً فخير، وإن شرًا فشر، وبخاصة الذين أسرفوا على أنفسهم بالكفر والقتل والظلم والعنف والفسق والفجور والاستبداد والقهر. حقاً إن المسرفين في الضلال والطغيان سيخلدون في النار.

وأمام هذا البيان الشامل وهذه الحجج الدامغة والبراهين الساطعة، والتصعيد والتتحدي لفرعون، ومحاولة فرعون أن يشي الرجل المؤمن عن دعوته، ومرؤاغته في صرفه عن المجاورة. وأصرار مؤمن آل فرعون على إقامة الحجة عليه وعلى زبانيته وأركان حكمه، لم يطق فرعون هذا الموقف، ولم يطق الرأي الآخر، وصاحب الرأي الآخر، فتوعده وهدده بالقتل، لقد هدد مؤمن آل فرعون بالقتل لرأي رآه، ولعقيدة اعتقادها، فهل انهار مؤمن آل فرعون؟ وهل تراجع عما هو فيه من الإيمان وثبات الجنان؟

لَا، إِنَّهُ وَقَفَ طَوْدًا أَشْمًا رَاسِخًا لَا يَتَرَلِلُ قَائِلًا: ﴿فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوَضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعَبادِ﴾ [غافر: ٤٤].

هذا هو الموقف الإيماني، يواجه التهديد بالتهديد، والوعيد بالوعيد، محذراً من مغبة كفرهم وضلالهم. فستذكرون ما أقول لكم، فستذكرون صدق كلامي عندما يحل بكم العذاب، أما تهديدكم فأواجهه بتفويض الأمر إلى الله، فهو بيده الأجل والنفع والضر، والحياة والموت ولا يملك ذلك أحد سواه قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَمْسِكُ اللَّهَ بِضَرِّكُمْ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسِكْ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

أخي القارئ الكريم: إنك داعية إلى الله، ينبغي أن تقول الحق وتحمل الحق. وتعلم أن نتيجة ذلك التهديد والوعيد والأذى، مما عليك ألا تعد نفسك لذلك! وتتجأ إلى الله تبارك وتعالى تسأله العون والسداد. وأن تفرض الأمر إلى الله فهو وحده المثبت لك

على الحق، المعينك على الصبر. فالجأ إليه وفوض الأمر إليه، فإنك متصر بإذن الله، وأكثر من استحضار هذه الآية كلما أحسست بمؤامرات الطواغيت وعملاً لهم. وكلما اشتد الضرر، وكثُر شانعوك. وردد معك في كل حين من هذه الأحيان: ﴿وَفَوْضُ
أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾.

المقالة السادسة والعشرون

نجاة مؤمن آل فرعون من بطش فرعون

لقد أفلس فرعون الطاغية المتأله من أي فكر يقدمه أو حجة يدافع بها عن الوهيتها المزيفة التي يدعى بها، وضاق ذرعاً بحجاج مؤمن آل فرعون، وهو يقدم الأدلة ويهذر الأمة، وينصحها نصيحة الناصح الأمين، ويحذرها تحذير الخائف المشفق الحب. وقرر في النهاية قتل فكرة الإيمان بزعمه حين يقتل مؤمن آل فرعون. ولكن الله يغرس في قلب المؤمن به الشجاعة والجرأة، ويحرره من الخوف من غير الله عز وجل. فالخالق هو الله وحده، والرازق هو الله وحده، والمؤمن يتوكّل عليه، ويفوض الأمر إليه، وهكذا كان. فهل استطاع فرعون المتغطرس أن يصل إلى هذا الرجل المؤمن؟ سمع القرآن يحدثك عن ذلك في قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فَرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ، النَّارُ يَعْرُضُونَ عَلَيْهَا غَدُوًا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فَرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

كانت النهاية والختمة نجاة مؤمن آل فرعون من مؤامرات فرعون وحاشيته. إذ وقاه الله تبارك وتعالى من مكرهم السيء الدنيء. وما أضمروه له من عذاب شديد وتنكيل، فنصره عليهم وأوقع بهم أسوأ العذاب، وهو الفرق في الدنيا، والحرق في الآخرة، والعذاب الدائم بينهما في الحياة البرزخية. تأمل قوله تعالى: ﴿النَّارُ يَعْرُضُونَ عَلَيْهَا غَدُوًا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]، والمراد بالنار هنا، نار القبر، وعذابهم في قبورهم بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فَرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فملائكة العذاب تتولى زجرهم وادخالهم جهنم وتعذيبهم فيها عذاباً لا يطيقه أحد. وإذا كان جسم الإنسان لا يقوى على أهون الحرارة فكيف نار وقودها الناس والحجارة؟.

أخي القاري الكريم: لقد انتهى هذا الصراع كما رأيت بين أهل الإيمان وأهل

الكفر، إلى نتيجة سارة للمؤمنين ومحزنة للكافرين، نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين وتدمرهم كما قال تعالى: ﴿وَدَمِرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فَرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرُشُونَ﴾ [الاعراف: ١٣٧].

لقد كان هذا نتيجة صبر المؤمنين وبخاصة مؤمن آل فرعون الذي ثبت وصبر، فكان له الظفر والنصر.

ويؤخذ من هذا: أن على الدعاة في فترة الضعف وقلة الأنصار ألا يتراجعوا في صراعهم مع أصحاب الصولة والجلوة والدولة. وسيسر لهم الله من أسباب النصر ما لا يخطر على بالهم.

ويؤخذ من هذا: أن تتشبع نفوس الدعاة في فترة الاستضعف بالأمل بالنصر، لأنهم يلتجأون إلى ركن ركين وحصن منيع. إنهم يلتجأون إلى مصدر العزة والمنعة ذلكم الله خالق كل شيء ومليكه. ﴿تَوَتَّى الْمَلَكُ مِنْ تَشَاءُ وَتَنَزَّعَ الْمَلَكُ مِنْ تَشَاءُ وَتَعْزُّ مِنْ تَشَاءُ وَتَذَلُّ مِنْ تَشَاءُ يَدِكَ الْخَيْرِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

إن ما لا شك فيه أن الدعاة إلى الله يعيشون في زمان ذئاب مسورة، ووحوش كاسرة في غابة يسودها الفوضى والاضطراب، ويحكم فيها مبدأ الغاب، وهم في هذه الغابة قليلاً العدد والعدة، ضعيفون مستضعفون، فليس لهم والحالة هذه إلا الثبات والاستمرار على رسالتهم رسالة التغيير والتحرير، والله ناصرهم لا محالة حين تخلص نفوسهم من حظوظ نفوسهم، ويقدمون مبادئهم على مصالحهم.

وفي موقف مؤمن آل فرعون قدوة لهم في كفاءته العلمية. وقدرته الحجاجية وفضاحته ونهاية حجته، وثباته وصبره، وتحديه للطاغية والطاغوت فرعون وزبانيه، حتى أهلك عدوه وأظهره عليه.

وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

المقالة السابعة والعشرون

نقم الله تحقیق بفرعون وأتباعه

تذکر الآیات القرآنیة أن فرعون عليه اللعنة - لما طلب بینة من موسى على صدق رسالته، وأظهر العصا التي انقلبت أفعى عظيمة كأنها جان في قوتها، وكذلك أخرج يده من تحت ابطه فكانت بيضاء تتلاأً بعد أن كانت سوداء. ولكنه لم يؤمّن هو وأركان حکمه وحاشيته. ولم يرسل من جاء موسى لتحريرهم من نیره من الشعب المصري.

إن موقف فرعون والملا من قومه من رسالة موسى - عليه السلام - الذي اتسم بالرفض مع قيام البینات على صحة دعواه لم يكن نابعاً من رؤية واستخدام للعقل، والتدبیر فيما يرى ويصر من آیات ومعجزات، وإنما كان صادراً عن هوى وحب للزعامة وحرص على استمرارها. وحرص أركان نظامه على تأليهه حتى تبقى مصالحهم الذاتية في زيادة دون نقصان، ومراكزهم في علو دون سفل.

ومن هذا المنطق النابع من الهوى الذي يغوي ويصم ويعمي، أو صدوا أسماعهم عن سماع كل بینة جديدة وأغلقوا أبصارهم واستغشو ثيابهم عن رؤية أي معجزة جديدة وتدبرها قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مِهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحِرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لِكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الاعراف: ١٣٢].

رأیت كيف وصل بهم الأمر من العناد والجحود والجمود أن يرفضوا مجرد التفكير في البینات التي سيقدمها موسى عليه السلام.

وأمام هذا العناد والاستکبار والجمود اقضت حکمة الله تعالى أن يتليهم ابتلاء يبعثهم على التدبیر والتفكير فيه لعلهم يتعظون وترق قلوبهم، فإن الشدة تجلب الانابة والخشية ورقة القلب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخْدَنَا آلُ فَرْعَوْنَ بِالسَّنَنِ وَنَقْصٍ مِنِ الشَّمَرَاتِ لِعَلَمْهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الاعراف: ١٣٠].

وكان من ذلك: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات فاستكروا و كانوا مجرمين.

حقاً، إنها معجزات بدأت بالمطر الشديد الذي كون السبيل العظيمة التي أغرت المزروعات، وجرفت التربة، فهربوا إلى موسى - عليه السلام - يسألونه ويستجدونه أن يدعوه الله لمنزلته الرفيعة عنده وأن يرفع عنهم هذا البلاء، واستعدوا أن يؤمنوا به لقاء ذلك، وأن يستجيبوا لأمره في تحرير الشعب المستضعف في مصر. فدعا موسى - عليه السلام - ربه، فأذهب الطوفان وصلحت الأرض وأنبت المزروعات وأخصبت، ولكنهم لم يؤمنوا ونكثوا العهد وأخللوا الوعد، فأرسل الله تبارك وتعالى عليهم الجراد، يأكل المزروعات التي نبتت، ويأكل ثيابهم التي يلبسونها من كثرتها، فهربوا إلى موسى يطلبون منه أن يدعوه الله أن يدفع عنهم هذا البلاء، وسيؤمنون به ويتحققون مراده، فدعا الله فاستجاب له، ولكنهم كانوا مخدعين محتالين كذابين، فأرسل الله عليهم القمل (سوس القمح) فقد نخر ما بقي عندهم من حبوب في مخازنهم بعد آفة الجراد الزاحف الذي أكل الأخضر واليابس. وقيل القمل المعروف الذي ملأ أجسامهم وامتص دماءهم ونشر فيهم الأمراض، فهربوا إلى موسى يستجدون به أن يتضرع إلى ربه ليرفع عنهم هذا البلاء، مؤكدين أنهم سيؤمنون به ويصدقون رسالته ويتبعونه ويتحققون مراده في تحرير شعبه، فرفع الله عنهم هذا البلاء ولكنهم خانوا العهد ونقضوه. فأرسل الله عليهم الضفادع ملأت بيوتهم ومزارعهم وأغذتهم وغطتهم وهم نائم. غطت وجوههم وعيونهم ووقفت على أفواههم، فإذا فتح أحدهم فاه قفزت فيه.

وهكذا تكرر هذا الموقف منهم، موقف نكث العهد وأسلوب الخداع وعدم الوفاء بالوعود التي وعدوها، والمواثيق التي قطعواها لموسى على أنفسهم. في آية الضفادع والدم، حيث تحول كل ماء عندهم من بئر، أو عين، أو نهر، إلى دم إذا أرادوا شربه والطبخ به، مما نغض عليهم حياتهم.

أخي القارئ الكريم: إن هذه المعجزات وهذه النقم التي أصاب الله تعالى بها

فرعون وقومه، لم تؤثر في نفوسهم ولا في قلوبهم، بل كانت أقسى من الحجارة على قسوتها. إذ أصرروا على الكفر والفسق والفحotor وسفك الدماء وقتل الأطفال واستحياء النساء. فكان القرار الرباني الانتقام العام والآهلاك لهؤلاء الكفرة الفجرة ناكثي العهد المكذبين للرسل، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجْلِهِمْ بِالْغَوَّةِ إِذَا هُمْ يَنْكِثُونَ، فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الاعراف: ١٣٥، ١٣٦].

أخي القارئ الكريم: مما تقدم يمكننا أن نستبط دروساً نستفيد منها كدعاة. ومن هذه الدروس، أن الهوى إذا استبد بصاحبـه أعمـاه عن الحق واتـباعـه، وأن الفراعنة يرفضـون الإيمـان خوفـاً على مصالـحـهم. وأن الله تبارـك وتعـالـى يـظـهـرـ الكـفـارـ علىـ حـقـيقـتـهـمـ أنـهـمـ نـاكـثـواـ العـهـودـ وـالـمـوـاـيـقـ، كـذـابـونـ خـدـاعـونـ، وـيـمـتـدـ سـفـهـهـمـ إـلـىـ أنـ يـحـاـولـواـ مـخـادـعـةـ اللـهـ تـبـارـكـ وـتـعـالـىـ، وـأنـ اللـهـ تـبـارـكـ وـتـعـالـىـ حـينـ يـمـكـنـ لـهـؤـلـاءـ بـعـضـ الـوقـتـ يـسـتـدـرـ جـهـمـ فـيـ ذـلـكـ. فـهـوـ يـمـهـلـ وـلـاـ يـهـمـلـ. فـقـدـ أـمـهـلـ فـرـعـونـ وـأـرـكـانـ حـكـمـهـ وـلـمـ يـهـمـلـهـمـ. فـفـيـ النـهاـيـةـ أـهـلـكـهـ وـأـهـلـكـهـمـ. إـنـ اللـهـ يـنـصـرـ أـوـلـيـاءـهـ، وـيـخـذـلـ وـيـهـمـ أـعـدـاءـهـ، وـالـعـاقـبةـ لـلـمـتـقـينـ.

المقالة الثامنة والعشرون

فتية مؤمنون يقعون بين نارين!

لقد ذكر القرآن الكريم أنَّ الذي آمن لموسى رجل من آل فرعون كان يكتم ايمانه فصرخ به في النهاية، وفاصلهم مفاصلة واضحة. وأمن مع موسى – عليه السلام – أيضاً السحرة الذين أقسموا بعزة فرعون أنهم سيغلبون موسى ويثبتون الوهيتِه ويبيطلون دعوة موسى ورسالته.

والقرآن الكريم أيضاً يخبر عن فتة ثلاثة وهي من قوم موسى عليه السلام. وهؤلاء قد كانوا شباباً بين الثامنة عشرة والحادية والعشرين، كما جاء في بعض كتب التفسير. قال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ مُوسَى إِلَّا ذرِيَّةً مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فَرْعَوْنَ وَمَلَأُهُمْ أَنْ يَفْتَهُمْ وَإِنَّ فَرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لِمَنِ الْمَسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

إن هذه الآية الكريمة تدل بوضوح أن هؤلاء الذين آمنوا ذرية – أي شباب – وهم من قوم موسى. وكانوا بين نارين، ويعيشون خوفين. الخوف الأول: من فرعون. والخوف الثاني: من ملأهم أي من قومهم.

أما الخوف الأول فواضح، فهو خوف من فرعون، وظلم فرعون، وبطش فرعون، وقد أعلن العقوبة لكل من آمن بقوله: ﴿فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلَافٍ وَلَا صَلَبَنَكُمْ فِي جَذْوَعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، وهذه الفتنة شاعت وانتشرت في جميع أوساط الشعب المصري.

وأما الخوف الثاني: فهو الخوف من أكابر بنى إسرائيل والتقديمين في السن منهم. الخوف من فتنة هؤلاء والضغط عليهم، يطارد الكبار الصغار، ويطارد الآباء والأبناء.

إن هؤلاء الآباء الذين تربوا في نظام فرعون وشربوا كأس الذل حتى التماطلة، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا عبيداً لفرعون يذلون جهودهم وعرقهم من أجل ارضاء فرعون. يأترون بأمره ويتهمون عند نهيه، وألفوا ذلك حتى أصبح سجية من سجاياهم وحصلة من خصالهم وعادة من عاداتهم المستديمة.

إن هؤلاء الآباء حين علموا أن أبناءهم قد أنكرواألوهية فرعون ربهم وسيدهم وفاحرهم وناصبوه العداء وآمنوا برب موسى - عليه السلام - وهارون أخيه، فوحدهو ولم يشركوا به شيئاً وعبدوه وبنذوا عبادة فرعون، بل تردوا علىألوهية فرعون. ماذا كان موقفهم؟

لقد جن جنونهم وأصابهم الذعر. لقد تخوفوا من ظلم فرعون، وبطش فرعون بهم بسبب إيمان أبنائهم وبأبنائهم كذلك. لقد عشعش في قلوبهم الخوف والرعب الفرعوني، فلا يملكون معارضته. وينكرون على أبنائهم كذلك. ومن ثم فالآباء يتعرضون لفتنة أدوم من فتنة فرعون، وشرطة فرعون، وأجهزة فرعون. إنها فتنة الآباء والأخوات والأمهات والكبار الذين يعايشونهم ويعيشون معهم تحت سقف واحد، وفي مجتمع واحد، يؤكلونهم ويشاربونهم ويسامرونهم ويتسمرون معهم، وينامون معهم، ويقومون معهم.

حقاً إنها لفتنة أشد على هؤلاء الشباب من فتنة فرعون الطاغية. فهي فتنة دائمة تلازمهم في كل ساعة من ساعات الليل والنهار. من أقرب الناس إليهم. والأصل في هؤلاء الآباء لو تحرروا من الخوف من فرعون أن يقضوا بجانب أبنائهم الشباب الذين اختاروا رسالة التوحيد والتحرير من ظلم فرعون، وبطش فرعون، وفسق فرعون. ولكن هؤلاء لم يستجيبوا لآباءهم العبيد الخانعين وتردوا على إرادتهم كما تردوا على إرادة الطاغية فعاشوا أحرازاً.

أخي القارئ الكريم:

إن الذي يعيش الأوضاع الجاهلية والأزمنة الفرعونية الجائمة على صدور الناس

وتأخذ بخناقهم، يستخلص بسهولة ويسأل أن هذا النوع من الفتنة والابتلاء ليس خاصاً بفرعون مصر، وليس خاصاً بآباء الأبناء الذين تربوا على تأله فرعون مصر، وأن هذا الأمر قد مضى وانقضى إلى غير رجعة. وإنما هذه الأوضاع الجاهلية إن سادت في زمان من الأزمنة تجعل الشباب المسلم الملتمز يعيش بين نارين، نار فتنة الفراعنة الطواغيت، ونار فتنة الأهل من آباء وأجداد وأمهات وأخوة وأخوات، تربوا في أحضان الطواغيت ووفق مناهجهم في كل شيء.

وإن كنت أنسى فلا أنسى شاباً أو أكثر كان في غاية الحيوية، متوقد الذكاء، يقتظي الإيمان، حي القلب، أبي النفس. مخلصاً كل الأخلاص لربه ولدينه ودعوته، قد جاء يشكو من ضغط أبيه وأهله وذويه. ويستغيث بعالم من العلماء ويستفتيه في أمر في غاية العجب، إن أباً يكره صلاته الدائمة بالمسجد وبالشباب المسلم الملتمز، ويريد منه أن يهجر دار القرآن والمسجد، ويقطّع أخوانه من الشباب المسلم الملتمز. لأن ذلك يرتب مسؤولية ومحاسبة ويوصد الباب في وجه مستقبله، وفي المقابل يريده منه أن يغير أصحابه وأصدقاءه، وأن يختار الأخلاق الخليلين، ويوثق صلاته بدور الفساد كالسيئينما وغيرها، محتاجاً أن ذلك لا يعرضه للمسؤولية ويفتح مستقبلاً باهراً وزاهراً أمامه.

وما يؤسف له، أن الأمر لم ينته عند هذا الحد، بل قد أقسام الأب الخانع الخاضع لعادات الجاهلية والأنظمة الجاهلية على أم ولده الشاب بالطلاق إن بقي ولده على التزامه وعلاقاته وآدابه الإسلامية وسلوكيه السوي. وكان الولد مضطرباً غاية الاضطراب، خائفاً أشد الخوف، ويتوجس خيفة من طلاق أبيه لأمه. ويستفتي ماذا يفعل إزاء هذا الأب؟.

إن مما لا شك فيه أن بعض الآباء الذين تربوا في الأنظمة الجاهلية. قد عشعشت الجاهلية في أدمعتهم بقيمها وأخلاقها، وملأت قلوبهم خوفاً من طواغيتها. وقام هؤلاء بدورهم ينفعون في نفوس أبنائهم الخوف، ويضغطون على أعصابهم. ولكن هؤلاء الشباب لن تؤثر فيهم ضغوط الجاهلية على اختلاف صورها ودرجة شدتتها، وستكون العاقبة لهم إن شاء الله.

المقالة التاسعة والعشرون

الترف وحب الرزامة يحجبان الاستجابة لنداء الإيمان

لقد أثبتت موسى عليه السلام بالأيات المفصلات الألوهية لله تبارك وتعالى والتي جاء يدعو الناس إليها. ولكن الطاغوت فرعون أنكر ذلك ورفض الانصياع إلى الأدلة القاطعة مع بطلان ألوهيته وصدق ألوهية الله رب العالمين.

لقد تمادى فرعون في موقفه من الإيمان بالله وتوحيده، ووراء هذا التمادي، العلو والاستكبار، فهو في زعمه التافه السفيه، أكبر من أن يؤمن بما جاء به موسى – عليه السلام – وأعظم من أن يكون من اتباع موسى – عليه السلام – فمن هو موسى حتى يكون تابعاً له؟ إنه نشأ في حجر فرعون ورباه. وفرعون ملك مصر الذي لا ينazuع يملك أرضها وأهلها وخیراتها ومیاهها. وهو طلق اللسان وموسى بزعمه عيي اللسان لا يکاد يعبر عما في نفسه، ويجد السامعون صعوبة في فهم كلامه. ويتجاوز فرعون الحد في سوء أدبه مع موسى – عليه السلام – فيدعى أنه ضعيف حقير لا عز له، ولا جاه، ولا سلطان يشبه ملك فرعون وسلطانه.

ولقد حکى القرآن هذا الموقف في سورة الزخرف: ﴿وَنَادَى فَرْعَوْنَ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمَ أَلِيْسَ لِي مَلْكُ مَصْرُّ، وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تَبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ. فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسْوَرَةً مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ - ٥٣].

إن الذي يتأمل هذه الآيات يدرك استكبار فرعون وغروره ومراؤته في رفض الدلائل والبيانات التي قدمها موسى – عليه السلام – ويحاول أن يصرف اهتمام المصريين عن دعوة موسى – عليه السلام – فالمقارنة بين ما يملك موسى – عليه السلام – من الدنيا وبخاصة مصر، وما يملك فرعون.

إن فرعون يفاجيء موسى - عليه السلام - ويفاجئ المصريين بإعانت شديدة يطلبها من موسى - عليه السلام - وهو طلب على سبيل التعجيز لا على سبيل البحث عن الدليل. فإن ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات أكد ما طلب فرعون الطاغية، إنه طلب أن يلقي الله إلى موسى - عليه السلام - اسورة من ذهب كرامة له ودلالة على نبوته، وأن تأتي الملائكة خدمًا له يؤيدونه ويحرسونه ويصدقونه بما جاء به. وعادة أهل الجاهلية عند تزييج الفراعنة والظلمة والجبايرة حاكماً على الناس أن يسوروه بسوارين ويطقوه بأطواق من ذهب أمارة على سيادته وزعامته وحكمه وتعظيمًا له ليتعلق الناس به ويحضروا للسلطانه.

إن هذا الأسلوب من فرعون صورة من صور مراوغته لاشغال الناس، وصرفهم عن سماع الحق وتدبره والانفاع به.

أخي القارئ الكريم:

إن طلب فرعون هذا يدل على جحوده وفساد فطرته وعدم استعداده للإيمان، حتى ولو لبى الله طلبه وألقى على موسى - عليه السلام - اسورة من ذهب وطوقه بالذهب، كذلك وإن تنصيب الحاكم بإغدائ الأموال الكثيرة عليه وإلباسه الذهب، يدل على أن حياة الطواغيت حياة ترف وسرف وتبذير، تتنافي مع أخلاق الأنبياء واتباع الأنبياء البعيدين عن الترف والسرف، لأن الترف طريق الشيطان. ومن خلق أولياء الشيطان. ولهذا فهو طريق التدمير **﴿فَإِذَا أُرْدَنَا أَنْ نَهَكَ قَرْيَةً أَمْرَنَا مُتَرْفِهَا، فَسَقَوْا فِيهَا فَحَقٌّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمِرْنَا هَا تَدْمِيرًا﴾** [الاسراء: ١٦].

وإن ما يلفت النظر أيضًا أنه استطاع أن يؤثر على نفسية الشعب المقهور، فيردد أفراد الشعب كالبيغاوات ما يقول.

ولقد استرعى انتباهي ما يجري من عادات أهل الجاهلية عند تنصيب حاكم من حكامها، أو إقامة عرس من أعراس أهلها، أو عيد من أعيادهم، إذ تسخر جميع وسائل الاعلام للنفع فيه، ويلبس أحلى الحلل وأزهاها، وتفرش الأرض بالسجاد الوثير ليدوس

عليه، وينفق في سبيل ذلك من الأموال العامة ما تنوء به خزانة الدولة المثقلة بالديون.
فهل ما يجري من هذا السرف والتصرف يطعم الجياع أو يخفف من حدة الجوع
ويواسى الأيتام والشكاوى؟! إن شيئاً من ذلك لا يكون سوى هدر مقدرات الأمة
وأموالها في سبيل تأليه طاغوت من الطواغيت.

وعلى الرغم من مراوغة فرعون واعناته فإن موسى - عليه السلام - ظل يدعوه
وأتياه إلى الإيمان ويصر على تحرير شعبه من الطغيان واستمر في دعوته لهم
وتحذيرهم من مغبة الكفر وتکذيب الرسل، ولكن القلوب القاسية المغلقة لا تنفتح
للحكمة ولا تتدبر العظة والعبرة.

المقالة الثلاثون

فرعون يحشد الجنود للفتك بالمؤمنين

لقد انتهينا في المقالات السابقة إلى أن فرعون الطاغية قد ركب رأسه وأصرّ على البطش بموسى - عليه السلام - والذين آمنوا معه من السحرة والشباب من قوم موسى - عليه السلام - وبيده السلطة والجنود، قال تعالى: ﴿وَفَرْعَوْنُ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ١٠]، فهو لاء الجنود هم الذين يثبتون حكم الطاغية وأدواته في إرهاب الناس، وتعذيبهم والبطش بهم. قال أبوالسعود في تعقيبه على الآية: «وصف بذلك لكثرة جنوده وخيمتهم التي يضربونها في منازلهم ولتعذيبه بالأوتاد».

لقد كان فرعون الطاغية متمرداً على الله تبارك وتعالى مدعياً الألوهية على الناس. ينكل بكل من حارب الشرك ودعا إلى تأليه الله تبارك وتعالى، وكان من صور تعذيبه لخاليه ومنكري ألوهيته: ربطهم في حر الشمس بالأوتاد دون طعام أو شراب.

أما في هذه الحالة حينما رأى اصرار موسى - عليه السلام - والذين آمنوا معه على موقفهم، فقد قرر استئصاله وحشد جنوده لذلك. وكانوا جميعاً على عداء مع أهل التوحيد، قد ملاً الكبر قلوبهم ونفوسهم قال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبِرُوا هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بَغْيَ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].

والذي يلفت النظر أن الجنود ليسوا مكرهين في عداء الحق وأهله، بل هم متخصصون حماس فرعون الطاغية واستكباره. نتيجة تضليلهم واغوائهم واغرائهم لكثرة ماله وجبروته.

إن الذي يدقق النظر في حالة فرعون النفسية والعصبية التي أخذت تلازمه بعد قهر موسى - عليه السلام - السحرة والإيمان بالله، وكذلك إيمان مؤمن رجل من قوم

فرعون بالله وبرسالة موسى والدفاع عنه والدعوة إلى نبذ الوهية فرعون، يجد أن فرعون كان متضايقاً جداً وإن كان يواجه الأمر متكتلاً بالصبر والاستهزاء والتهكم والسخرية والاستخفاف. إلا أنه كان في شدة الغيظ من هذه القلة المؤمنة وشدة الخوف على ملكه منها. تأمل قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ إِلَيْهِ الْمَدَائِنَ حَاشِرِينَ. إِنَّ هُؤُلَاءِ لَشَرِذَمَةٍ قَلِيلُونَ، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ. وَإِنَّا لِجَمِيعِ حَادِرِنَ﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٦].

إن فرعون تراه في هذه الآيات يقلل من شأن موسى - عليه السلام - والذين اتبعوه من المؤمنين فيصفهم بالشريحة القليلة، ومع تهوينه لهم فقد أظهر خوفه وفزعه منهم، وغيظه عليهم لأنهم على قلتهم رفضوا الوهية و اختاروا طريق التحرير من استرقاقه. ومع هذا فهو حذر حذراً شديداً من تأثيرهم، ولهذا فهو يطاردهم ويضيق عليهم الخناق في كل قرية يسكنونها. وفي كل حارة يقيمون فيها، فجنوده على أهبة الاستعداد، وقد حشدتهم في كل قرية يطاردون المؤمنين ويحصون عليهم حر كاتهم وسكناتهم.

أخي القارئ الكريم:

عند تأملنا وتدبّرنا لما تقدم من أقوال فرعون وتصراته هو وجندوه، نستنبط مدى تأثير الفكرة السلمية وأصحابها - ولو كانوا قليلاً في عددهم - في نفوس الطواغيت أمثال فراعنة مصر والفراعنة عموماً قدّيماً وحديثاً.

وإن مما لا شك فيه أنك عشت في زمان كانت الأنظمة الجاهلية ولا تزال تصنف الدعاة إلى الله الذين يعملون في الحركة الإسلامية لاستئناف الحياة الإسلامية، وإقامة الدولة الإسلامية وهي تحاربهم بجميع وسائل اعلامها، وتزوج بهم في غياب السجون، وتذيقهم سوء العذاب وتؤذيهم أشد الأذية، ومع هذا تجد سدنة هذه الأنظمة وأبوابها الإعلامية، يصفون هؤلاء الدعاة الجبال بأنهم حفنة من الناس، وأحياناً بنفس عبارة فرعون الطاغية. إنهم لشريحة قليلة، وأقول: إذا كان هؤلاء شريحة قليلة وبزعم الفراعنة أنها قليلة التأثير في الكثرة الكاثرة، بل لا وزن لها في هذه الكثرة، فلم التخوف إذاً منها!

إن مما لا شك فيه أن هذا الأسلوب له أثره النفسي على الناس العاديين، حين يحشد الطغاة الفراعنة زبانيتهم وجنودهم للبطش بالقلة المؤمنة التي لا حول لها ولا طول، بعد أن يمهدوا لهذا البطش بوسائل اعلامهم للتهاون من شأنهم وتحقيرهم ومن ثم عدم التأثر على قتالهم ظلماً.

إن الذي أغاظ فرعون مصر قديماً وفراعنة القرن العشرين حديثاً من الحركة الإسلامية: أنها كشفت حقيقتهم وأنها تسعى لتغييرهم، ومعها من الحجج الدامجة والبراهين الساطعة ما تقنع الناس بصواب فكرتها وسلامة موقفها، وبخطأ الفراعنة وخطيئتهم وجهلهم ووجوب تغييرهم. وهم يحسون بهذا التأثير ويستميتون في وقفه والقضاء عليه. ولكن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

المقالة الحادية والثلاثون

موسى يسلك سبيل النجاة

لقد اتضحت فكرة موسى وانتشرت بين الناس وبخاصة المستضعفين منهم، وبقي فرعون على كفره وجحوده، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى أن يخرج بالذين آمنوا من هذه البلدة مصر التي تأله فيها فرعون وسفك دماء الأبرياء والأطفال. وحدد له الله تبارك وتعالى وقت الخروج منه بأن يكون في الليل وعلى الأدق في هزيع الليل الأخير. وحيث تكون عيون الرقباء من الظلمة وجواصيسهم قد أرهقها السهر. وغطت في سباتها العميق. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكُمْ مُوسَى أَنَّ أَسْرَى بَعْدَهِ﴾ [طه: ٧٧]، [الإسراء: المسير ليلاً].

لقد تجمع الذين آمنوا بموسى من كل أقطار مصر والتفوا حول موسى، وخضعوا لقيادته، وساروا جميعاً يتقدمهم موسى - عليه السلام - ولما علم الطاغية فرعون بمسيرهم حشد جنوده من بلدان مختلفة، وقادهم بنفسه وتبع موسى - عليه السلام - والذين معه يريد إعادتهم إلى مصر، ومن البدهي أنه سيسموهم سوء العذاب، وسينكل بهم أشد تنكيل، لأنهم أنكروا ألوهيتة، وتمردوا عليه، وخضعوا وانقادوا لموسى - عليه السلام - يوالونه ويتراؤن من فرعون الطاغوت.

لقد اقترب فرعون بجنوده من موسى والذين آمنوا معه، وخرجوا يريدون النجاة. فكان هذا باعثاً للذين كانوا مع موسى على الانزعاج والاضطراب، إذ خافوا على أنفسهم واستغاثوا بموسى - عليه السلام - فأنكر موسى عليهم خوفهم وشكهم قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقَيْنَ، فَلَمَّا تَرَاهُمُ الْجَمِيعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرُوكُونَ، قَالَ كَلَّا إِنْ مَعِي رَبِّ يَسِيْهُدِينَ، فَأَوْحَيْنَا إِلَيْكُمْ مُوسَى أَنْ أَضْرِبَ بَعْصَمَ الْبَحْرِ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فُرْقَةٍ كَالْطُّوْدِ الْعَظِيمِ، وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠ - ٦٥].

لقد كان موسى - عليه السلام - في حالة نفسية تغاير كلياً حالة الذين معه، لقد كان في غاية الاستقرار النفسي، في حين أنهم كانوا مضطربين خائفين من بطش فرعون، غير ذاكرين لقدرة من هو أكبر من فرعون وأقدر من فرعون خالق السموات والأرض وما بينهما إذا أراد أمراً إنما يقول له كن فيكون.

ومن منطلق الاستقرار النفسي الذي ولده الإيمان في قلب موسى ونفسه لم ينزعج من قرب الطاغوت فرعون وجنوده منه، ولم يربكه خوف الذين معه من الهاك على يد فرعون إذا ظفر بهم، بل كلّهم بحزم وزجرهم على هذا الظن السيء، واهماليهم جانب القدرة الإلهية، فقال: ﴿كلا إِنْ مَعِي رَبٌ سَيِّدُهُمْ﴾ [الشعراء: ٦٢].

إن معية الله التي يستشعرها موسى سكبت في قلبه الأمان والأمان، والاستقرار والقرار الأمين المكين.

لقد صدر الأمر الإلهي لموسى - عليه السلام - الذي استشعر معية الله له. وذكر اتباعه بهذه المعية. وأن الله لن يمكن فرعون وجنوده منه ومن اتباعه، وأنه سيهدئه إلى طريق النجاة والخلاص. وسينصره على عدوه وعدوهم لا محالة. قال الرازمي رحمه الله: «قوى نفوسهم بأمررين: أحدهما أن ربه معه، وهذا دلالة النصرة والتوكفل بالمعونة والثاني: قوله سيهدئين أي إلى طريق النجاة والخلاص، وإذا دله على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية في النصرة».

لقد قذف الله في قلب موسى أمره ووحيه بأن يضرب بعصاه المعهودة التي ابتلعت جميع عصي السحررة وحبالهم وأبطلت سحرهم، أمره أن يضرب بها البحر، فلم يتردد في تنفيذ الأمر بل بادر على التو بتنفيذها، فانقلب البحر بهذه الضربة إلى اثنى عشر طريقة، وجمد الماء فأصبح كالجبال الصلبة، وأصبحت أرض البحر يابسة ميسورة للمسير، فلا وحل يعيق السير، ولا برد يقتل الأجسام، لقد ساروا في جو عادي مريح، حتى قطعوا البحر ووصلوا إلى اليابسة ناجين لم يمسسهم سوء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَيْ مُوسَى أَنْ أَسْرِ بَعْدَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يِسَّاً لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشِي﴾ [طه: ٧٧].

أخي القارئ الكريم:

ما تقدم يمكن أن نستخلص فوائد جليلة منها: أن الله تبارك وتعالى لا يسلم أولياءه لأعدائه، وأن عقيدة اليمان تحرر النفس من الخوف والقلق على النفس وغيرها، وأن الله تبارك وتعالى يحمي أولياءه وينصرهم وييسر لهم من أسباب النصر ما لا يخطر على بالهم، كما هو هنا في ضرب البحر بالعصا، وأن العاقبة في النهاية للثابتين على طريقهم طريق الحق.

وما أحوج الشباب المسلم اليوم إلى أن يثق بدعوته، ويثق بما عند ربه من النصر وتوفير أسبابه، قال تعالى: ﴿وَمَا الصُّرُّ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

ويجب أن يؤمن الداعية إيماناً لا يخالجه أدنى شك أن الله ناصر المؤمنين وهازم الفراعنة وجندهم الجرميين إن عاجلاً أو آجلاً.

ويجب أن يستشعر الدعاة معية الله لهم، وإن كانت الطريق موحشة، فإن المعية تؤنس القلوب والآنفوس، وتشعر بالعزيمة والقوة. كما تشعر بغایة الهدف ونبهه وتشعر باستمرار المراقبة الدائمة لله لنيل رضاه والفوز بجزيل ثوابه في الدنيا والآخرة.

المقالة الثانية والثلاثون

فاليوم نجيك ببدنك لتكون من خلفك آية

لقد ذكر سابقاً أن موسى - عليه السلام - ومن معه قد اجتازوا البحر، بعد أن شق موسى بعصاه اثنى عشر طريقاً يابسة، وأن فرعون كان على أثرهم يريد ردهم إلى مصر والبطش بهم وتعذيبهم فماذا كانت نتيجته وهل حقق غايته في مسعاه هذا؟

إن الآيات القرآنية في أكثر من سورة في القرآن الكريم تخبرنا أن فرعون لما وصل إلى البحر، ووجده طرقاً يابسة، وتقديم هو وجنوده وساروا فيه ليتحققوا بموسى والذين آمنوا معه، ويشنوهم عمّا هم فيه. ولما توسط فرعون وجنوده في البحر وخرج موسى ومن معه من البحر أمر الله تبارك وتعالى البحر، فأطبق عليهم وأغرقهم جميعاً بما فيهم فرعون عليه اللعنة وأصبحوا أحاديث للأمم والأفراد.

قال تعالى: ﴿فَأَتَبْعَهُمْ فَرَعُونَ بِجَنُودِهِ فَغَشَّاهُمْ مِنَ اليمِ مَا غَشَّاهُمْ. وَأَضَلَ فَرَعُونَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٨ - ٧٩].

قال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا هُوَ وَجَنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَلَّمُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ. فَأَخْذَنَاهُ وَجَنُودَهُ فَبَذَنَاهُمْ فِي الْيَمِ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٣٩ - ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنَّ هُؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ. فَأَسْرَ بَعِيَادِي لِيَلَّا إِنْكَمْ مُتَّبِعُونَ، وَاتَّرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جَنَدٌ مَغْرِقُونَ، كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعَيْوَنٍ وَزَرْوَعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٦ - ٢٢].

هكذا كانت نتيجة الطاغية فرعون الذي تأله في مصر، وهكذا كانت نتيجة الذين ألهوه ورسخوا ملكه وكانوا سدنته وجنوده. لقد نبذهم الله نبذأ، وأين نبذهم في البحر فكانوا طعاماً لحيوانات البحر، إلا جثة خبيثة قضى الله تبارك وتعالى أن يلقطها ماء البحر لفظاً على الشاطئ، هذه الجثة، جثة الطاغية المعبد الظالم

الفاجر سفاك الدماء قاتل الأطفال. ولقد تحدثت سورة يونس عن هذا المشهد. قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعْنَاهُمْ فَرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْفَرْقَ قَالَ آمَنْتُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. إِنَّمَا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، فَإِلَيْهِمْ نَنْجِيْكَ بِيَدِنَّكَ لَتَكُونَ مِنْ خَلْفِكَ أَيَّهُ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠ - ٩٢].

لقد قضت الكلمة الله تبارك وتعالي أن يهلك فرعون وجنوده، فأغرقه وأغرقهم، إلا أنه لما رأى الموت بعينيه أدرك أنه ليس يإله، وأن الإله الحق هو إله موسى الذي دعا فرعون إلى الإيمان به، وخر السحرة سجداً له مؤمنين به، وآمن به مؤمن آل فرعون، وآمن به شباب من قوم موسى لم يتأثروا بضغط أهل الجاهلية سواء كانوا من جهة آبائهم وأمهاتهم أو من جهة الطاغية.

ولقد انطقه الحال فقال: «آمنت أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنْتُ بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» فلم يقبل الله منه هذا الإيمان ولا هذه التوبة، لأن الإيمان في ساعة الغرغرة وخروج الروح لا يقبل، والتوبة كذلك في هذه الحال لا تقبل. قال تعالى في ذلك: ﴿وَلَيْسَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتَ قَالَ إِنِّي تَبَتَّ إِنَّمَا وَلَا الَّذِينَ يَوْمَنُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

ولهذا أنكر الله عليه ذلك ولم يقبل هذا الاعتراف المبني على القهر والغلبة واليأس من الحياة: ﴿إِنَّمَا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]

لقد كان باب التوبة مفتوحاً أمام فرعون قبل الغرق، وكان موسى وهارون ومؤمن آل فرعون يقدمون له الأدلة والبراهين، ولكنه كان معانداً كفاراً يرفض ويراوغ كما علمت في المقالات السابقة، أما الآن فقد أوصى الله بباب التوبة أمامه.

أخي القارئ الكريم:

إنه مما لا شك فيه أن القصص القرآني يقصه الله على رسوله وعلى المؤمنين ليعتبروا ويتعظوا. وفي قصة هلاك فرعون ونبذ جسده من البحر حكمة بالغة يغفل

عنها كثيرون من الناس. قد حدثنا الله عن هذه الحكمة أن يتعظ الطواغيت الفراعنة بعد فرعون بما جرى لفرعون. وطواحيت زماننا لن يصلوا إلى ما وصل إليه فرعون من كثرة المال والانصار والجنود والجبروت. وهذا هو ذا فرعون جيفة قدرة تلقى على الشاطئ فلا يعبأ بها أحد، ولا تخيف أحداً، ولا تنفع صاحبها ولا تنفع سدتها.

إن الفراعنة في كل زمان ومكان مدعاون لأنخذ العبرة مما حديث لفرعون حينما تأله في الأرض وسجن كل من لا يسلم له بالآلوهية، عليهم أن يحذروا الظلم والفسق والفحور والتأله في الأرض على الناس، وتعييد الناس لهم من دون الله.

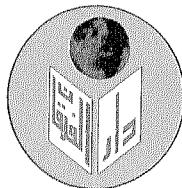
عليهم أن يذكروا نتيجة فرعون ويذكروها دائماً، وأن يغتنموا فرصة باب التوبة وهو مفتوح قبل أن يغرقوا إلى الأذقان في الكفر والمعاصي ويموتوا وهم كذلك.

على أتباع الفراعنة أن يتعظوا بما حديث الجنود فرعون، وأن فرعون لم يدفع الهلاك عن نفسه ولم يدفعه عنهم، عليهم أن يتبرأوا من كل فراعنة الأرض قبل فوات الأوان.

كتب للمؤلف

- ١- النظام السياسي في الاسلام.
- ٢- القضاء في الاسلام.
- ٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ٤- أسس في التصور الاسلامي.
- ٥- حكم الشورى و نتيجتها في الاسلام.
- ٦- الشورى وقضايا الاجتهد الجماعي.
- ٧- القضاء بشاهد وعيين.
- ٨- أحكام الذبائح في الاسلام.
- ٩- اليمان والندور.
- ١٠- حكم الذبائح المستوردة إلى بلاد المسلمين.
- ١١- الإسراء والمعراج.
- ١٢- الهجرة النبوية.
- ١٣- غزوة بدر.
- ١٤- غزوة أحد.
- ١٥- غزوة الأحزاب.
- ١٦- غزوة الحديبية.

- ١٧ - غزوة الفتح الأعظم.
- ١٨ - غزوة حنين.
- ١٩ - الصراع مع اليهود الجزء الأول.
- ٢٠ - الصراع مع اليهود الجزء الثاني.
- ٢١ - الصراع مع اليهود الجزء الثالث.
- ٢٢ - الصراع مع الصليبيين.
- ٢٣ - ثلاثة من الأولين.
- ٢٤ - تفسير سورة الأنفال.
- ٢٥ - تفسير سورة الحجرات.
- ٢٦ - شهداء فلسطين.
- ٢٧ - القاضي أبويعلى الفراء وكتابه الأحكام السلطانية.
- ٢٨ - أسس في الدعوة ووسائل نشرها.
- ٢٩ - ارشادات لتحسين خطبة الجمعة.
- ٣٠ - مؤتمر مدريد في الشروع والعقل.
- ٣١ - المدرسة النبوية العسكرية.
- ٣٢ - فقه الإمام البخاري.
- ٣٣ - منهج الحركة الإسلامية في التغيير.
- ٣٤ - المشاركة في الوزارة في الأنظمة الجاهلية.
- ٣٥ - الابتلاء والمحن في الدعوات.
- ٣٦ - انفاق الزكاة في المصالح العامة.



دار الفرقان للنشر والتوزيع

الإدارة والمكتبة - العبدلي - عمارة جوهرة القدس

مقابل وزارة التربية والتعليم

هاتف: ٩٣٧ - ٦٤٥٩٣٧ - فاكس: ٦٢٨٣٦٢

ص.ب: ٩٢١٥٢٦ عمان - الأردن

مكتبة دار الفرقان - فرع إربد مقابل جامعة اليرموك

هاتف: ٢٧٦٥٠٦